الهروب

الهروب

رواية

أثير أسعد الطائي

اسم العمل : الهروب
تأليف : أثير أسعد الطائي
الطبعة الاولى : بغداد ٢٠١٦
حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
تصميم الغلاف والكتاب : علي حجازي

الاهداء

الى أمي، الصنديدة الشامخة،

والنخلة الوارفة...

الى زوجتي، نبع الإيثار وبحر النقاء...

وإلى رسلي المالكي، شعلة الإبداع

وملهم الإبتكار...

- ١ -

أفلت الصبي باب المزرعة الخشبي الثقيل من يده، ليتراجع ببطء نحو الاغلاق، مُصدراً صريراً عالياً من مفصله المعدني الصدئ.

«متى أكبر واتخلص من اوامرهم!»

تمتم بجزع بالغ وبدأ بتوجيه دراجته، التي تجر عربة على متنها زوج من الخراف، نحو طريق منحنٍ طويل، كان هو الطريق الوحيد للخروج من المزرعة.

«يوقظونك منذ اول ساعات الفجر... وتقضي لهم اشغالهم، ومازالوا غير راضين عنك...»

تابع الفتى التذمر، ثم نظر الى الكلب الضخم الذي تربّع على مقعد ملحق بالدراجة على يساره.

«هل ترضى بهذا يا بوبي؟»

نظر اليه الكلب نظرة غامضة وعاد ينظر للأمام مرة اخرى. كان وهج الشمس يغمر طرف السماء الغامقة، مولداً وشاحاً بنفسجياً متدرجاً احتل الجهة الشرقية من الافق، وامتدت على الأرض مساحات المزارع الخضراء التي عكس صفاؤها صفاء تلك المنطقة من شمال العراق. تخللت نسمات بداية الخريف بشرة وجه الولد وساقيه المكشوفتين لحد الركبة، بينما كانت الدراجة ترتج بسبب وعورة الطريق. كان عليه

ان يصل الى الشارع ثم يعبره للجهة الأخرى، ويوصل الخراف الى مزرعة عمه وبعدها يعود بالمال. مرت فترة لا تقل عن نصف ساعة، قبل وصوله الى الأرض الترابية الجرداء المحيطة بالشارع العام. ثقلت عيناه بالنعاس، وفي ذلك الحين ظهر قرص الشمس وبدأ بالارتفاع.

«لقد تعبت يا بوبي... الا تستطيع انت توصيلهم؟ سأحضر لك وجبتك المفضل إن فعلتها.»

لم يعره الكلب اهتماماً اكثر من تحريك اذنيه قليلاً عند سماعه لإسمه.

«حسناً... لننتهي بسرعة من هذا.»

تحفزت عزيمة الصبي بمنظر الشارع الذي بدأ يقترب بين سور الأشجار، فزاد من سرعة الدراجة، لكن الكلب اطلق نباحاً مفاجئاً بقربه.

«ماذا هناك!»

كان الكلب ينظر باتجاه سيارة بعيدة قادمة نحوهما. وقف الفتى لدقيقة كي يتبين معالمها. كانت سيارة حمل بيك أب بيضاء مع راية على قمة بدنها، بدأت بالإتضاح اكثر مع دنوها باتجاههم.

«يا الهي!»

من غير الممكن أن يتوهم بتلك الراية السوداء القاتمة. صاح لا ارادياً واستدار بالدراجة، متراجعاً عن جهة الشارع بينما كان نباح الكلب يتعالى، مع تنامي خوفه هو الآخر.

«صه بوبي... صه!»

توجه نحو جذع عريض لشجرة وقفت منفردةً بقربه، في الوقت الذي كادت السيارة أن تصل. كان قد وصل للجذع تواً عندما سمع صوت معدن ثقيل وهو يرتطم بشدة بشيء صلب. التفت ليرى المركبة، وهي تتدحرج وتصطدم بالأسفلت لعدة مرات قبل ان تتوقف رأساً على عقب وتدور الاطارات آخر دوراتها. التقط الصبي أنفاسه بصعوبة وهو يفكر بخطوته القادمة. نزل من عربته، وتقدم بخطوات حذرة باتجاه السيارة ثم أعاد النظر الى الشارع. كان هنالك تل من الرمال على جانب الطريق، وقد ظهرت عليه بوضوح أثر عجلات البيك أب.

«هذا هو سبب الحادث إذن...»

ملأه الفضول والترقب خلال تقدمه نحو السيارة المقلوبة. استطاع تمييز شكل رجلين ملثمين كانا يرتديان الأسود في كراسي المقدمة، مع رجال آخرين في المقاعد الخلفية. وفجأة، أخذ دخان قاتم بالتصاعد من تحت غطاء المحرك المنبعج.

«قد تنفجر هذه الآن... يجب أن أذهب لأخبر أبي فوراً.»

استدار بفزع الى عربة الحيوانات، وقادها مسرعاً في طريق الإياب الى المزرعة، ومن تحت بدن التحميل للعجلة المنكوبة خلفه، أتت صرخات خافتة لطفل صغير، كان قبل دقائق فقط نائماً بأمان في حضن أمه. كان الفتى مرعوباً من ذلك كله.

- ٢ -

إنه يوم السبت، بعد ثلاثة أعوام من ذلك الحادث. في مخيم صغير للمهجرين، جنوب بغداد بحوالي تسعين كيلومتراً، كانت هند الشابة، ذات الخمسة والعشرين ربيعاً، تمشي حاملة اناء غسيل الملابس بيدها اليسرى. تمايل جذعها النحيل وساقاها الطويلتان تحت ثوبها الرمادي مع ثقل الإناء، خلال سيرها نحو مساحة صغيرة مربعة من الحشيش المصفر، والتي تواجدت امام خيمتها.

- «لقد تأخرت يا سعد...»

- «دقيقة واحدة يا أمي... لست وحيداً هنا، ألا ترين!»

هتف سعد بفراغ صبر. رفعت هند عينيها الواسعتين اللتين تألقتا باللون العسلي الفاتح، وخطفت نظرة الى طابور الأولاد الواقفين من بعيد، منظر اعتادت هي وبقية عوائل النازحين على رؤيته بشكل شبه يومي. لقد أدت شحة مياه الإسالة الى تكوين ذلك الطابور من الأطفال، الواقفين لملء دلائهم من أنبوب الماء الداخل الى مخيمهم النائي.

كانت هند تعيش مع ابنها سعد ذي الخمس سنوات في ذلك المخيم، مع حوالي عشرة عوائل أخرى من النازحين. لقد فرّوا من بطش التنظيم المتطرف الذي تغير اسمه اليوم، المتكون من آلاف الزمر من افراد تعددت جنسياتهم واختلفت ألسنتهم، الا أن ضلال الفكر وهمجية

السلوك جمعهم تحت راية دولة وهمية، اطلقوا عليها مسمى «الدولة الإسلامية». استحلّ التنظيم المدن والأراضي، مما أجبر الكثير من الأهالي على الرحيل. لقد قطعوا مئات الكيلومترات من ارضهم الأم بحثاً عن مأوى يؤمن لهم العيش، حتى استقروا في هذه الناحية، حيث قامت السلطات فيها بتخصيص مخيم لهم ومدتهم بمساعدات غذائية ودوائية بشكل دوري. ورغم الترحيب النسبي الذي قوبلوا به هنا، إلا أن ظروف المعيشة لم تكن جيدة إطلاقاً.

أتى سعد بالماء، بعد حوالي نصف ساعة من الوقوف تحت شمس حزيران الحارقة. أكملت هند غسل الملابس بيديها، وأرجعت شعرها الأشقر، الذي توارى معظمه تحت حجاب خفيف الى الوراء، ثم نهضت حاملة السلال لنشرها على الحبل الممتد خلف الخيمة. كانت تسير بخطوات متثاقلة باتجاه الحبل، وقد زاد احمرار بشرتها البيضاء من الحر، لكنها لم تلبث ان توقفت بفعل يد ثقيلة امسكتها.

- «صباح الخير ام سعد. يبدو عليك التعب اليوم.»

كانت المتكلمة أم محمود، ام لخمسة أطفال ملأ ضجيجهم المكان على الدوام، أما زوجها فكان يعمل كسائق سيارة أجرة في البلدة.

- «صباح النور أم محمود، كيف الحال؟»

- «الحمد لله على كل حال...»

استرسلت ام محمود بالحديث عن آخر اخبار انتصارات الجيش العراقي على الإرهاب والتنظيم المتطرف، وعن غلاء الأسعار، وكانت

هند تستمع بصمت في اثناء تعليقها للملابس، قبل أن ينتهي الحديث بسؤال:

- «لقد تمت دعوتك لمقابلة المحافظ، أليس كذلك يا هند؟»

استدارت هند بسرعة وحدقت بوجه أم محمود باستغراب.

- «كلا... من أين جئتِ بهذا الخبر؟»

- «مممم.. لقد ظننت أن وكيل المحافظ الذي زارنا الأسبوع الماضي، قد قام بدعوتك لمقابلة مع المحافظ.»

- «هههههه! ولماذا سيدعوني أنا بالذات؟»

- «لا أعلم... لقد رأيته يكلمك على انفراد لبعض الوقت في نهاية زيارته الى هنا. إنهم يختارون من يجدون فيه مواصفات محددة لتلك المقابلة، ضمن حملة مساعدة المهجرين التي انطلقت مؤخراً. انت أرملة وأم لطفل ولا معيل لكِ الآن، وبالحقيقة يجدر بهم اختياركِ!»

- «آه... معلوماتكِ وافرة أم محمود.»

عادت هند تتمشى الى خيمتها. كان كلام أم محمود صحيحاً بالكامل، وقد دعاها الوكيل للمقابلة في بناية المحافظة يوم غد، وأخبرها بأن هنالك فرصة جيدة للحصول على سكن جديد.

«هذه المرأة ذكية للغاية... لذلك يجب أن أكتم هذا الأمر عنها. هذه فرصة تعويض الظلم الذي حدث، ومازال يحدث لنا.»

دخلت الى الخيمة، واستلقت على السجادة الخفيفة المفروشة أمام مبرد الهواء الصغير، ثم تفقدت جيباً داخلياً في ثوبها، ولم تستكن

اصابعها الا عندما لمست مغلف بطاقة الدعوة الصغير، الذي لم تدعه يفارق ذلك الجيب منذ أن استلمته. مرقت امام ناظريها جثة مقلوبة رأساً على عقب، خلفها راية سوداء ملفوفة على سارية منكسرة. شعرت بغصة في حلقها، وطردت تلك الصورة كمن يطرد بعوضة تحاول ان تمص دمه، ثم قامت لترزم قسماً من اغراضها واغراض ابنها في صرر قماشية، تاركة صرتين للملابس المغسولة. كانت تعمل وشفتاها تتلفظ بدعاء، أن تأتي الفرصة لكي تستعمل هذه الصرر في انتقال سريع من هذا المكان. قامت بوضعهن في النهاية في حقيبتين بسيطتين. لم تتعدّ الأغراض الملابس الضرورية وزوجين مستهلكين من الأحذية، مع ما كانت تدخره من مال متواضع، وبعض المستلزمات المنزلية المتفرقة. جاء سعد مهرولاً وتوقف عند المدخل.

- «هل تبدلين لي ملابسي يا امي؟»

نظرت هند الى ساعة يد قرب الفراش، قبل ان ترد.

- «نعم... هيا ادخل.»

- «أريد القميص الأصفر اليوم. يجب ان يقال اني وسيم.»

- «انت وسيم ماما... وسيم طول الوقت. اقسم لك.»

- «اعرف ذلك، لكن اريد ان تقولها لي نرجس!»

ابتسمت هند، وشرعت بإخراج القميص الذي ذكره. هذا الجيل من الأطفال تفكيره سابق لعمره بعدة سنين. لم تعرف إذا كان السبب هو حداثة العصر كما يسمونها، ام كثرة ما مر بهم من مآسٍ عجلت في

إنضاج عقولهم، وسرعت في فهمهم للحياة وحاجاتها. يجب ان يكونوا بعد ساعة في بيت ابي رشا، وهو رجل كهل متدين من اهل المدينة، يقع منزله في الأطراف في مكان ليس ببعيد عن المخيم. تعرف ابو رشا على هند عند زيارته للمخيم، خلال تبرعه بمجموعة من الأغطية والبطانيات، الكفيلة بتخفيف وقع الشتاء على النازحين، وعرض عليها القيام بأعمال البيت له مرة كل اسبوعين او ثلاثة، مقابل مبلغ مالي مع معونات متفرقة. لم تفوّت هند شهراً دون الذهاب اليه في الأشهر القلائل الأخيرة.

قبل الظهر بقليل، كان سعد ووالدته يقطعان المسافة الممتدة بين الشارع المعبد وبيت ابي رشا سيراً على الاقدام، بسبب اعمال حفر كانت تنفذها البلدية في بداية الزقاق. إستمر سعد في نفض الغبار عن قميصه وبنطاله، نتيجة تعثره وسقوطه على الارض قبل قليل، خلال نزوله من الباص. تطلع سعد الى بيوت ذلك الحي النظيف، ثم الى مجموعة من الفتيات الصغار بملابس انيقة كن يمشين سوية. مع الاقتراب من البيت المنشود، لفتت انتباه سعد امرأة بدينة سمراء ترتدي العباءة، كانت تحمل اكياس خضار. مرت المرأة بجانبه وقد ثبتت عيناها على والدته، بينما كشفت قسمات وجهها الممتلئ عن اشمئزاز شديد. دخلت المرأة في البيت المقابل لبيت ابي رشا، والذي زينت مدخله آية الكرسي المنقوشة على السيراميك الأزرق، تاركة سعد ينظر خلفها بتعجب.

- «ما بال هذه السيدة يا امي؟»

- «شششش اخفض صوتك. ليس بها شيء...»

اجابت هند بعجل بينما امتدت يدها لتطرق باب ابي رشا، المتكون من باب اعتيادية صغيرة مع باب متزحلقة للكراج. لعنت داخل نفسها تلك البغيضة السمراء، التي كانت تحتقر النازحين احتقاراً غريباً، ولم تتوانَ عن الاجهار بذلك علناً وأمام هند.

«انهم حمقى! لقد سمحوا للقتلة بدخول قراهم وبيوتهم ورحبوا بهم... وبعدها هربوا إلينا ذليلين كالجرذان، طالبين الحماية. والآن يموت اولادنا يومياً بسببهم. يجب ان نعيدهم الى هناك ليذوقوا ما صنعت اياديهم!»

تلك كانت كلمات المرأة البدينة، التي نطقتها عالياً بتعمد، وهي تتحدث الى احدى نساء المنطقة، في ثاني زيارة لهند الى بيت ابي رشا. من الطبيعي ان لا يستقبل جميع الاهالي العوائل النازحة بحفاوة، حيث أن لكل فرد وجهة نظر عن الموضوع، وإن كانت الأغلبية تحسن اليهم وتتعاطف معهم، كتعاطف ابي رشا مثلا، الذي فتح الباب محيياً اياهم بابتسامته العريضة المعتادة، كاشفة عن اسنان متراصة بلا نسق كتراصف احجار سياج عشوائي. كان ظاهر الصلع لكنه، كما اعتاد ان يفعل شحيح شعر الرأس، قام بتطويل صف من شعره الاشيب من جهة ومده عبر صحراء رأسه الوسطية الى الجهة المقابلة. غزا وجهه المسن التجاعيد، التي كانت تتعاظم مع كل ابتسامة يرسمها، بينما بدأ جلده بالتصبغ ببقع الشيخوخة في بعض الأماكن، التي تشكل اطار الوجه.

- «اهلاً ام سعد... مرحباً بالبطل الصغير! تفضلا بالدخول...»

كان حريصاً على استعمال الكلمات الفصيحة او القريبة منها، لاعتقاده

انها ستسهل التفاهم مع هند وابنها، بحكم موطنهما الشمالي، مهملاً كونهما من نفس قوميته. نظر بحنان واضح الى الطفل، بعينيه الصغيرتين المختبئتين خلف عدسات نظارته السميكة، وهو يجتاز عتبة داره.

- «نرجس موجودة؟»

سأل سعد بعد رده لتحية ابي رشا.

- «بالتأكيد... لقد مكثت خصيصا لإنتظارك يا سعد.»

غمز العجوز الى هند التي ابتسمت بصمت. من الواضح ان سعد يشعر بانجذاب لا يستهان به نحو الحفيدة، وإن كان ينكره بشدة امام الآخرين. دخلت هند الى الصالة الفارهة يتبعها ابنها. كان هذا المنزل يشعرها بارتياح وهدوء نفسي، اتى بالتأكيد من دفء قلوب اهله، ابو رشا الذي كانت تشعر بأنه جد ضائع لسعد، وزوجته العجوز المقعدة في الفراش، اثر مرض مفاصلها المزمن. كان لهما ابنان وبنت، سافر الأكبر منهم لطلب اللجوء في الولايات المتحدة، بعد عمله كمترجم مع منظمة امريكية تابعة للأمم المتحدة، دخلت للعراق بعد عام ٢٠٠٣، بينما توفيت البنت بعد تخرجها مباشرة، اثر اصابتها بمرض خبيث في الدم، قضى عليها في زهرة شبابها. لم يبقَ بعدها الا الأبن الأصغر الذي صار مسؤولاً عن ستوديو التصوير الكبير، بعد أن ورث صنعته عن والده. تزوج بعدها وسكن الطابق العلوي في منزل ابيه، وها هي ابنته نرجس، ذات الثمانية أعوام، تملأ فراغ حياة جديها، بينما يشغل اشقاؤها، التوأم الرضع معظم وقت والدتها.

- «اهلاً سعد...»

كانت عبارة نرجس مفعمة بدلع البنات، قالتها وهي تتفحص ملابسه.

- «تبدو ظريفاً اليوم.»

- «نعم... وأنت كذلك!»

رافقت رده نظرة عجرفة طفولية مصطنعة، اشاح وجهه بعدها الى امه.

- «ماذا ستفعلين الآن ماما؟»

- «سأبدأ التنظيف... اذهب للّعب الآن، لكن لا تبتعد... قد اناديك لمساعدتي.»

انصرف سعد مع الصغيرة، بينما دخلت هند الى غرفة جانبية تضع فيها عباءتها وحقيبتها اليدوية في خزانة صغيرة، قبل الشروع في العمل. كانت قد همت بوضع الحقيبة فوق العباءة، لكن شقاً عرضياً مخفياً امتد على اسفل الجيب الخارجي لها اصابها بالصدمة. فتحت السحاب لتفقد محتويات الجيب، كان خالياً تماماً. صرختها جاءت كهمس صارخ. «بطاقة المقابلة!» .

- ٣ -

في الليلة السابقة، وقف أبو صالح خلف سلاحه المنصوب على النافذة، وهو يتحقق من أدواته.

- «الوضع آمن.»

جاء الصوت للمرة الثالثة عبر اللاسلكي، المثبت في مكانه المخصص على الحزام. رفعه ابو صالح الى فمه وأجاب باقتضاب:

- «واضح، وهنا كذلك.»

اعاد الجهاز الى موضعه وقام بتعديل بندقية القنص، بعد أن زعزع ثقلها استقرار نصبتها على القطعة المثبتة لها، ثم عاد ليتفقد المنظر عبر الفتحة التي توسطت جدار الطابوق المنخفض، والذي كان يحجب عنه الأعين. غمر الهدوء الشارع الذي ستجري فيه المهمة خلال هنيهة، وخلا تماماً من اي كائن، بينما بدأت مجموعة من الغيوم المبعثرة بالتقارب فوقه وتكوين جو خانق كتم تيارات الهواء. سبح السحاب وتقدم حتى أغشى وجه القمر، وحوله الى قرص من الضوء الشاحب المنكسر.

«سبحان الله... يتغير الجو دوماً في العمليات.»

كانت خاطرته في محلها، ولم يعلم هل كانت تلك علامة رضا من الله، ام كان للسماء رأي آخر. لم يهمه ذلك على كل حال البتة، ما دامت الأمور سائرة باتجاهها المرسوم. انسابت حبتا عرق من جانب صدغه

وبللت شعرات حاجبه، التي لم يمنع تراصفها مرور القطرات نزولاً الى جفنه ثم عتبة عينه. رمش الجفن غريزياً الى ان سقط العرق جانباً.

«هل هذا بسبب ارتباك؟ ربما توترت قليلاً؟ كلا... ابو صالح لا يتوتر. هذا الواجب اسهل من مراقبة ابو غالب وهو يصنع قهوته الخفيفة!»

احس بشيء من الراحة عند انتباهه للحر الذي جاء مبكراً هذا الموسم، وارتسمت على شفتيه الجافتين ابتسامة باهتة سخر من نفسه فيها. فجأة، طرأت حركة في الشارع فصوب المنظار نحوها، حيث كان رفيقه ابو قتيبة يسرع حاملاً العدة. وقف ابو صالح يتمعن فيه من مكانه في هيكل البناء المتداعي. سيبدأ بزرع العبوة وسوف يتم عمله بحرفيته المعتادة وبلا اثار تقتفى. هذا هو العمل المتقن. قام بتصويب منظار القنص ثانية باتجاه موضع ابو غالب، الذي كان في ركن احد افرع الطريق الجانبية. لم يظهر منه الا كفي يديه الضخمتين ولمعان ماسورة سلاحه الرشاش. قام بمسح سريع للمنطقة المحيطة بهما، ثم التقط جهاز الارسال.

- «الوضع آمن ابو غالب.»

- «عُلِم... وهنا ايضاً.»

ها قد بدأ ابو قتيبة بعمله. كم سيكون جميلاً لو ان بإمكان ابي صالح تدخين سيجارة الآن، لكن ذلك الربو القصبي الذي اصابه في السنين الاخيرة لن يسمح له بذلك. ذلك الداء الذي كانت نجاة دائمة الامتنان له، كونه الوحيد الذي حقق امنيتها في التخلص من دخان التبغ العائم

في البيت طوال الوقت.

«نجاة... ماذا جلبك الى بالي الآن!»

كان ذكر زوجته المتوفية يسبب قشعريرة في جسده، واحساساً قاتماً يكرهه، إحساس مظلم اكثر من ظلام تلك الليلة الغائمة. أغمض عينيه لثوانٍ، كأنه يفرغ فكره ثم اطرق عبر المنظار يراقب ويراقب، حتى لاحت له حركة خاطفة في احد الازقة المليئة بالأنقاض وانواع المخلفات، والتي كانت على مسافة غير بعيدة من موقع العملية. كان الفرع قصيراً وذا نهاية مسدودة، انقض عليه بتقريب العدسة وتمشيط المكان بدقة دون نتيجة، قبل أن يعيدها الى وضعها وهو يتذمر.

«سبحان الله ... اكره هذه الحيوانات.»

اعتبر ابو صالح أن الأمر لا يتعدى هراً مستعجلاً او كلباً ضالاً في ذلك الليل، خصوصاً ان المنطقة قد تم اختيارها من قبلهم بعد فحص ميداني دام ليومين. ضربت وجهه موجة رياح قوية اكتسحت الاجواء على حين غرة، عاد بعد مرورها لتفقد ابي قتيبة الذي كاد ينتهي.

«هيا يا رجل...»

وفجأة سطعت بقعة ضوء من نافذة عالية في بقايا بيت واطئ، كان يشكل النهاية المسدودة لنفس الزقاق. حملق القناص فيها واصبعه متشنج قرب الزناد.

«ماذا يفعل هذا الأحمق؟»

كان الضوء يأتي متقطعاً ومتذبذباً كأن هناك من يحجبه ويكشفه

بحاجز ما. هم ابو صالح بالضغط على الزناد، وراود باله احتمال كون مصدر الضوء قناص معاد تابع للجيش او لاعداء التنظيم.

«لكن هذا الموقع منخفض، ثم كيف يفضح مكانه هكذا؟»

وانقطع الضوء كما ظهر، وعادت السكينة لتسود الانحاء، لكن الرجل شم رائحة الخطر ورفع اللاسلكي.

- «ابو غالب كيف الوضع عندك؟»

مرت ثوان قبل الرد.

- «الوضع آمن، هل من جديد لديك؟»

تردد قليلا ثم قال «لا شيء جديد.»

قام بإرجاع الجهاز وفحص الزقاق والحجرة ثانية، حيث لم يستجد شيء فيهما، ثم تحقق من الطريق المؤدي له. لقد كان الزقاق قريبا من طريقه لنقطة اللقاء مع رفاقه قبل المغادرة. مرت دقائق اخرى قبل ان يأتيه نداء ابي قتيبة، معلناً انتهاء المهمة والتوجه نحو النقطة المتفق عليها، والتي كان لكل منهم مساره الخاص نحوها. لملم ابو صالح ادواته وفكك السلاح بخفة، ثم حمل حقيبته وانطلق مسرعا نحو الشارع. ارسل عبارة عاجلة الى اصحابه اثناء مسيره.

- «انتظروني لخمس دقائق لا اكثر. لقد تشنجت ساقي اثناء الوقوف.»

- «هه! تحتاج لتمارين جادة ايها العجوز...»

وضع الجهاز في الحزام وفتشت عيناه ما حوله، ثم حث الخطى باتجاه الزقاق ذي النهاية المسدودة. لفح الهواء الرطب وجنتيه، مُزيداً

من تعرقهما، بينما اختفى باقي وجهه خلف كوفيته السوداء. كانت حقيبة عدته تلتصق بظهره كالتصاق الطفل بأمه، غير عابئة بحركته السريعة نحو هدفه. ثبتت حدقتاه باتجاه مدخل الزقاق المريب، وتعالى في نفسه شعور بعدم الارتياح.

«لا ضير من اضاعة بضعة دقائق هنا الآن.»

لقد تغيّر أبو صالح بعد إلتحاقه بالتنظيم، وأضحى عاشقاً للخطر وند يما له. مثّل الخطر له أهم متطلبات روحه المضطربة، التي بحثت عنه لتستكين وتهدأ. لم تُشبع خطورة دوره في تلك العملية شهوته، فانطلق يبحث لا شعورياً عن المزيد. سرت رعشة في جسده عندما تماثل امامه هدفه، بكامل خرائبه وبقايا البيوت التي غدت آثاراً، بضمنها ذلك الذي ظهر ضوء من فتحة علوية فيه. استل مسدسه ذا التسع مليمات وركب الكاتم على فوهته بسرعة المحترفين، وولج بحذر في الزقاق.

ملأت المكان رائحة التراب الثقيلة واختلطت مع نسيم الصيف، جاعلةً وقعه في الحنجرة كغشاء يُضيق الانفاس. تقدم ابو صالح بخطى ثابتة باتجاه ضالته، وهي اطلال بيت قديم كانت واجهته تسد نهاية الطريق بالكامل. مع دنوه منه اتضحت تفاصيله اكثر، حيث كانت للحجرة الامامية في الطابق العلوي فتحة، تمثل مكاناً سابقاً لنافذة، لاحظ من خلالها وجود هالة من الضوء في الداخل. اما باقي المقدمة فقد كوّنها حائط متهالك لغرفة أرضية، فيه فراغ جانبي للدخول يسمح بمرور شخص واحد. شغل القناص ضوء المصباح المنصوب في جيبه

الخاص ودخل عبر الفتحة.

كانت الارضية مكتظة بالأحجار التي تخللتها رمال متناثرة، لكنها لم تشكل عقبة امام جزمة ابي صالح المنيعة. تهشمت الصخور تحت اقدامه وهو يشق طريقه، شاهرا سلاحه اليدوي في وضع التصويب. لم يختلف حال الباحة الوسطية في البيت عن حال المدخل كثيراً، سوى ان الظلام كان حالكاً في ارجائها. قطعها ابو صالح بسرعة نحو السلم وصعد الى الاعلى. احس ان كل شيء حوله يهدده بحتف وشيك، لكنه لم يتوقف الى ان وطأت قدمه اخيراً الحجرة المنشودة.

في وسط الحجرة، تدلى من السقف جسد امرأة عجوز بالغة النحافة، ترتدي ثوباً نسائياً غامق اللون، تأرجحت قدماها الحافيتان ببطء مع اشتداد ضربات الريح. كان المكان بالكاد مضاءاً بمصباح على دكة حجرية، وبدا ان الهواء قد قلبه موجهاً نوره نحو الجدار. عبقت رائحة شبيهة برائحة اللحم الفاسد في الجو. اجفل ابو صالح للحظة ثم وجّه ضوء المصباح نحو رأس السيدة. كانت رقبتها مربوطة بعقدة من حبل غليظ، تعلقت نهايته بخطاف حديدي في السقف، وتناثر شعرها الاشيب الكثيف مغطياً رأسها ووجهها الذي بدت عليه علامات الخلو من الحياة. كانت مشنوقة هناك، معلقة كدمية مغلولة لا تجد من يحررها.

«هذه الفقيرة... لا بد انها انهت حياتها بيدها.»

وقطعت افكاره وشوشة اللاسلكي التي تلاها صوت ابو قتيبة.

- «لقد وصلنا... ما الوضع أبا صالح؟»

- «انا في طريقي... لا توجد مشكلة.»

نظر الرجل الى جسد المرأة وإلى المصباح في الحائط، وفهم امر الضوء المتقطع. استدار وتوجه خارجاً الى السلم، قبل ان يباغته عصف هواء شديد من النافذة. انكمش جسمه وجثا على ركبة واحدة كأنه يحتضن نفسه، واختلط هدير الريح مع صوت تكسر زجاج وارتطام ثقل كبير على الأرض، خلفه تماماً. رفع رأسه وادار بصره بالتدريج، بينما اشتدت رائحة اللحم المتعفن فجأة.

ظلام تام، لا بد ان المصباح انكسر. ضغط زر تشغيل مصباح جيبه، لكن ضوءاً لم يأت منه.

«اللعنة... لم استبدل بطارية هذا اللعين اليوم!»

اخرجه من مكانه وضربه براحة يده عدة مرات، فانبعث منه ضوء اصفر باهت.

«ما هذا!»

لقد اختفت الجثة، واختفى الحبل مع حجر السقف المتداعي الذي كان يحمله. استكشف ابو صالح الارض ليجد الجسد متكوّماً قرب قدميه. اجتاحته رغبة في رؤية الوجه، وتردد قبل ان يقلبها ويلملم شعرها المتيبس ليزيحه.

«يا الهي!»

أصيبت اوصاله بشلل لحظي وجحظت عيناه بهلع.

لقد كانت هي... كانت نجاة!

- ٤ -

- «استيقظ يا بليد! لقد حلّ السبت... انهض! متى نمت، الأربعاء؟ أم الخميس؟»

تبع هذه الهتافات رمي حصاتين على الفتى، الذي كان متكوراً على بساط من خرق الاقمشة القديمة. إفترش البساط رقعة ارض مكسوة بالأسمنت، تجاور سياجاً متهالكاً من الطابوق الحجري.

- «لعنك الله يا ابن الخنزير... ستنال عقابك على اقتحامك لأرضي!»

قالها عبود بتوعد شيطاني ونهض، الا ان الفتى الآخر استجاب بضحكة عميقة ملأت وجهه المتسخ، وانطلق يهرول هارباً. خطت قدماه الحافيتان فوق التراب بخفة أرجل الغزال، بينما رفرفت اطراف ثيابه البالية في جريانه، كأوراق شجرة تواجه ريحاً عاتية. نظر عبود اليه بعينين ناعستين وتمتم بعدة شتائم اخرى، قبل ان يلف بساطه ويتأبطه داخلاً الى الغرفة القريبة منه. كانت تلك الغرفة والفسحة الاسمنتية هي حصته من المساكن العشوائية، التي امتدت على مساحة جيدة من الأرض تحاذي مبزلاً اروائياً ضحلاً. اصطفت اعواد القصب والأدغال على ضفتي المبزل، وتكونت بيئة خصبة لنمو أنواع عدة من البعوض والطفيليات. عبق الجو بالروائح الآسنة بين الحين والآخر، في حين كانت عوائل من الكلاب السائبة تسرح بين الأطفال، كأنهم اخوة من أسلاف

مختلفة الأنواع.

تم التبرع بهذه الأرض والبناء من قبل احد ميسوري الحال، لإسكان حوالي ستين شخصاً من الفقراء المدقعين. كان الأمر مقتصراً على العوائل في البداية، لكن مجموعة من الصبية المتشردين ومجهولي الأهل انضموا اليهم. شكل هؤلاء في السابق مجتمعاً بلا مأوى. عاشوا يجوبون الشوارع ويكسبون قوتهم من الاستجداء أو النشل عند الضرورة. صنعوا قوانينهم الخاصة، التي كانت تتقلب حسب ما تقتضي الاهواء، واعتمد معظمها على مبدأ الغلبة للأقوى.

في تلك الظروف نجا عبود، وأتم من عمره أربعة عشر عاماً. استطاع عبود شق طريقه في تلك الجماعة السائبة، بل كان قائداً لهم في أحايين عدة. أول حدث سجلته ذاكرة عبود مرت عليه ست او سبع سنوات، وهو دهس رفيقه الحميم خلال فرارهما. لم يتذكر سبب الفرار، ولا اي حدث مما سبقه. كل ما يتذكره هو صوت تحطم عظام صديقه بسيارة مسرعة، اثناء عدوهما قرب طريق خارجي. انه لا يتذكر حتى اسم ذلك الصديق، بالرغم من ان ذكرى موته تحز في نفسه للغاية. تصاب معدته بتشنج والتواء كلما تذكر ذلك. بالتأكيد، لأن الحدث انطبع في نفسه منذ الطفولة، وربما لكونه قد افتقر الى رفيق قريب منذ ذلك الحين.

من المحال ان يكون ذلك الحدث اول مأساة صبغت حياة عبود، لأن ظروف ولادته، التي لا يعرف احد عنها شيئاً، تشكل دراما مأساوية بحد ذاتها. إلا إنه قد تجاوز التأثر بها منذ أمد طويل. لقد خُلِق بهذه

الحياة وحيداً، وتطبّعت نفسه على ذلك. لا مشكلة في العيش حراً طليقاً كالطير، مادام الرمق مسدوداً والسقف متوفراً عند الحاجة، ولم يحتاجه عبود بإلحاح خلال الصيف اللاهب حتى عند حلول الظهر الطويل، حيث كان يفضل قضاءه في ظل شجرة او خلف مبنى عالٍ.

دخل عبود الى الغرفة، التي كان يتشارك اركانها مع اثنين من الفتيان الأصغر منه. احدهما الذي ايقظه بالحصى، اما الثاني فيبدو انه غادر باكراً ذلك الصباح. قام برمي البساط والقماش الخفيف، الذي إستعمله كشرشف طارد للبعوض، في ركنه الخاص ثم خرج ليضع رأسه تحت صنبور الماء.

«آه! الماء ساخن منذ الصبح... هذا ينذر بتعاسة قادمة...»

كانت قساوة الحر قد بدأت بالاشتداد في ذلك اليوم الحزيراني. فرك عبود بعنف شعره الخشن، الذي جفت اطرافه بفعل الشمس وقلة الإغتسال، ثم خفف من سرعة الدعك عند وصول اصابع يده الى الجهة اليسرى، حيث توجد عينه التالفة وأذنه التي التهمتها الحروق الشديدة. كان يعتبر تلك المنطقة من وجهه نقطة ضعفه، بالرغم من مرور اكثر من عامين على التفجير الانتحاري بسيارة ملغومة في السوق الشعبي. ذلك التفجير الذي ادى الى تناثر اشلاء الناس كتناثر الالعاب النارية، وأحال الاجساد واجزائها الى قذائف اصابت المزيد من الضحايا. اما عبود فكان نصيبه ان طالته شظية، تسببت بحرق عينه وأذنه اليسراوين، مع ما احاط بهما من الجلد. قضى اسابيع في المستشفى وقتها، وكان الاطباء

يجتمعون امامه ويطيلون النقاش قرب سريره. تنامى الخوف بداخله وانتهى به الى الهرب في احدى الليالي، بعد سماعه بخبر من احد عمال النظافة، يفيد باحتمال اجراء عملية ترقيع جلد له.

«هؤلاء يستغلون كوني وحيداً. سيجربون اشياء جديدة في وجهي، ولن يحاسبهم احد إن اخطئوا. بل لن يعرف احد بذلك حتى!»

لقد هرب منهم، رغم ان ذلك لم يكن قراره، بل قرار لصوت خارجي ناجى عقله. لم يعنِ وجود جلد محترق مصطبغ في وجهه شيئاً له. عندما رأى نفسه في مرآة دورة المياه داخل مرآب عام للمركبات ابتسم، ثم ضحك من اعماق قلبه. سيجني اكثر مما كان يجنيه في السابق بمساعدة هذا الحرق. لقد بدا اكثر وجعاً، واكثر مظلومية، وبالتالي سيكسب استعطاف الناس اكثر. نظر الى عينه المغلقة وجفنيه المتورمين آنذاك، وشعر بأنه احد زعماء القراصنة القدماء. كشّر عن انيابه الصفراء وخرج الى الشارع يمشي بصدر مرفوع، كأنه مقبل على غزوة مهمة غنيمتها كنز من الذهب.

وبالفعل، استغل عبود ذلك التشوه ايما إستغلال في عمله، وأدر عليه وافر الصدقات. كان موهوباً في خلق شخص ثانٍ منه، فتى مسكين وُلد في اسرة مفلسة، مات ابوه وبقي هو المعين لأمه واخوته الصغار. زادته الحياة ظلماً، شوهه وأفقده أذناً وعيناً. لقد اشفق عليه حتى الأطفال، فكانوا يعطونه مصروفهم، او جزءاً منه، ليبتعد وهو يضحك ضحكته الماكرة. مثّل كل طفل مرتب المظهر في نظره محفظة مال حمقاء سائرة،

ولقمة سائغة له. اما جماعته القديمة فقد بدلها بجماعة اخرى بعد الحادث، اغلب افرادها كانوا اصغر منه سناً، مما مكنه من انتزاع حصة جيدة له عند تقسيم غنيمة جماعية، كما حصل في حالة هذه المساكن المتداعية، حيث نال الركن الأكبر في الحجرة، مع عدد قليل نسبياً من المشاركين.

انتعل عبود صندله من الجلد العتيق، ونفض بعض القذارة التي كانت عالقة تحت ابط رداءه، قبل ان يغادر البيت باتجاه ضفة المبزل. سحب الفتى نفساً عميقاً من انفه وفمه وهو يمر ببقية المنازل البائسة. ملأت الهواء رائحة المياه الملوثة وفضلات الكلاب، الا ان انف عبود تشبع بها منذ زمن وتعوّد، كما تعوّد على النوم في العراء، ومصاحبة الحيوانات والأوساخ. قام بمط ذراعيه ومدّ قدميه مراراً، ثم لوى رقبته يميناً ويساراً، كلاعب يستعد للمشاركة في مباراة كرة قدم، قبل أن يتوقف بمكانه قليلاً، ثم يعود ادراجه بعد ان عبر باباً صدئاً لمنزلٍ على يمينه.

«كدت ان انسى... اليوم هو السبت.»

نظر عبود حوله، قبل ان يقفز بخفة عابراً السياج. كانت الباحة خالية من اي ملبس للقدم، كما ساد الهدوء هناك. تلك هي العلامات المؤكدة لخروج ساكنيه منه في ذلك الوقت.

«الله معك يا شاطر زمانك.»

تمتم وهو يتجه نحو باب الغرفة الأمامية، مخرجاً مفتاحاً صغيراً من جيبٍ مُختفٍ في ثوبه. أدخله في القفل وأداره بحرفة عدة مرات حتى

صدرت طقطقة. كان ذلك الباب الوحيد الذي فتحه المفتاح المجهول، منذ أن وجده عبود مرمياً في احد الشوارع. لم يكتشف ذلك بالصدفة، بل كان يجربه على كل باب او قفل يلقاه. فتح باب عشوائي باستعمال اداة مهملة هو من الأحداث النادرة التي تشعره دائماً بنشوة خاصة. دفعه برفق ودخل الى الحجرة.

كانت كثيرة الشبه بغرفته، حيث تبعثرت فيها مختلف الخرق والأغطية المستهلكة، وظهر على ثلاثة من جدرانها الأربعة صدوع متعرجة من السقف الى الأرضية. توجه عبود مباشرة الى احدى الزوايا، وأزاح الأغراض ليكشف عن اسفل الحائط، الذي كانت طوابيقه عارية. أخذ يتلمسها واحدة تلو الأخرى بعناية، الى أن تزحزحت احداها. امسك بها وسحبها من الصف، ليظهر في فراغها كيس اسود من النايلون. هتف الصبي بسعادة وهو يضعه في جيبه السري، تلا ذلك إعادة الطابوقة الى مكانها والخروج مسرعاً، بعد إقفاله للباب بالمفتاح نفسه، ثم القفز فوق السياج عند انعدام المارة.

لم يكن صاحب ذلك الركن، «ذو القملتين» كما كان الفتيان يسمونه ولأسباب واضحة، حصيفاً في تأمين مدخراته المالية الشحيحة. استغل عبود قلة حيلته وكان يقوم بالسطو على خزنته الحصينة مرة كل شهرين او ثلاثة، لتفادي المشاكل التي ستحصل في حال تكرار السرقة خلال فترات اقرب. انطلق عبود نحو المبزل، ومنه الى الشارع. انتظر مرور احد باصات نقل الركاب الصغيرة، قبل ان يرخي جسده ويبطئ

حركة اطرافه، تأهباً لدور المسكين، ثم ركب واستفتح عمل ذلك اليوم كمتسول.

مرت ساعات النهار بثقل على عبود، وهو يجوب الشارعين التجاريين الطويلين وسط المدينة. دخل محلات ملابس النساء بالتسلسل ولم يخل احدها من الزبائن، ثم اعقبها بمتاجر الهواتف النقالة، الا انه لم يفلح في استخلاص رزق معقول. صدح صوت المؤذن قادماً من الجامع الكبير، معلناً عن صلاة الظهر، فتوجه اليه لعله يخرج من هناك ببعض النقود. ربض عبود في البداية في بقعة متربة عند المدخل، ثم يئس من السابلة ودخل ليستجدي المصلين القلائل. كان معظمهم لسوء حظه ممن ساعدوه مراراً في السابق، فلم يتمكن من الالحاح عليهم في تكرار العون. توجه الفتى للخروج، لكن رجلاً في منتصف العمر ناداه، فالتفت اليه عبود. كان الرجل جالساً على انفراد بجانب مكان الصلاة، ودارت في اصابع يده اليمنى مسبحة من الخرز البنية الداكنة.

- «يا ولد، تعال... ما اسمك؟»

دنا عبود منه بمشيته المصطنعة وأجاب بصوت متشحرج:

- «عبد الله يا عم. أرجو ان تساعدني بقدر استطاعتك...»

- «سأساعدك، فقط قل لي... هل تواظب على الصلاة؟»

لم يتفاجأ عبود، بل كان يتوقع ذلك السؤال في الجامع. فأجاب بثقة:

- «بالتأكيد يا عم.»

- «إذن اريد منك معروفاً... اريدك أن تدعو لأمي بالشفاء، اسمها ام

غازي. إدعُ لها في كل صلواتك اليوم، وغداً.»

- «طلباتك اوامر يا عم!»

- «اشكرك. انا رجل اقترف من الذنوب الكثير... كما ظلمت اشخاصاً قريبين مني دون وجه حق. انا اؤمن ان دعاء المظلوم مستجاب، ويقال ان دعاء الغريب كذلك ايضاً. الآن انت شخص غريب، وأراك مظلوماً ظلماً عظيماً. لعلّ الله تعالى يتقبل منك دعوة الشفاء.»

حدق الصبي بعينه الواحدة في وجه الرجل. كان مطأطأ الرأس نحو مسبحة يده اثناء كلامه، وبدا كحمامة مكسورة الجناح. أخذ عبود يشعر ببعض الشفقة، بالرغم من ان الأم كانت شيئاً مجهولاً له.

- «سأدعو لها يا عم. اقسم لك بذلك.»

غادر الصبي الجامع، بعد ان تصدّق عليه الرجل بمبلغ يعتبره جيداً. عبود لا يصلي. لم يعلمه احد كيفية الصلاة، ولم يبدِ هو اهتماماً بتعلمها. كان يرى انها فرض على أصحاب الأموال فقط، الذين يعيشون بصورة طبيعية بين اهلهم واصدقائهم.

«العصر، سأقرأ دعاءاً قرب الجامع واهديه لأم الرجل. الأعمال بالنيات...»

ارتاح باله لهذه الفكرة، وتمشى نحو موقف الباصات لركوب احدها. استوقفته هيئة متسول يعرفه، كان قريباً منه.

- «ذو القملتين!»

سحبه عبود بعيداً عن طريق السابلة وخاطبه بصوت منخفض:

- «لا تذهب للشوارع التجارية، يوجد كساد اليوم.»

- «آه، لا مشكلة. سأسير بعكس اتجاهها. اسمع، كنت للتو في حي الاتصالات، ووجدت كنزاً هناك!»

- «هه... هنيئاً لك. لا بد انك خدعت احد الأثرياء واكرمك.»

- «كلا. انه شيء جديد، وفريد» سكت قليلا ثم تابع بتنهد «لو إني اعرف القراءة لتمكنت من التباهي به...»

- «ما هو؟ ارني... ربما اشتريه منك.»

فكر الصبي لثوان، قبل ان يظهر على ملامحه الاستسلام. مد يده داخل شواله وأخرج مغلفاً ورقياً منه. فتح المغلّف لتظهر بطاقة انيقة، تحمل كتابة بحروف ذهبية لامعة.

- ٥ -

- «سعد... سعد تعال بسرعة... استعجل!»

شرعت هند تنادي بذعر، تحت صدمة فقدان البطاقة. لم تستوعب كيف نسيت أن تخيط جيب الحقيبة، الذي تمزق قبل يومين في تدافعها مع حشود الناس، وسط سوق الخضار. ربما كان الفعل مقصوداً بغرض السرقة، لكن ذلك لا يهم، فقد فات اوان الأسف. فتشت مسارها داخل البيت، ثم ارتدت عباءتها واصطحبت ابنها الى الخارج، لتتفقد خط سيرهما من الباص الى بيت ابي رشا خطوة خطوة، بلا جدوى. تبخر المغلف، وتبخرت معه الآمال العريضة في قلب هند. عادت لبيت ابي رشا، حيث وقف العجوز يراقبها بحيرة.

- «ماذا وقع منك يا ابنتي؟ هوني عليك...»

نظرت عيناها الواسعتان خلفها نظرة منكسرة، بينما انطوت وجنتاها في أسى قبل أن ترد ببطء:

- «وقعت بطاقة مهمة، دعوة لإجتماع مع المحافظ.»

- «آه! لا تضيع من الأوراق الا المهمة. لكنني سأساعدك، صِفيها لي.»

قام أبو رشا بسؤال عدد ممن كانوا يمرون في الطريق ذلك الوقت، دون نتيجة، ولم تدخل هند البيت إلا وهي في يأس تام.

عملت هند ذلك اليوم في بيت العجوز ببرود ولا مبالاة. كل شيء

يبعث أملاً يضيع، كل حلم فيه جمال يتلاشى قبل أجله، أما المآسي والكوابيس فهي تبقى وتنمو، وتتكاثر، حتى تشيخ العتيقة وتتبدل بما تيسر من ذريتها. خفتت معاني الأشياء، وبهت ضياؤها في عينيها. صادفت انعكاس وجهها على قطعة سيراميك خضراء صافية في جدار المطبخ، فوقفت لحظات لتنظر إليها. بشرة بيضاء، عينان جميلتان بحدقتين كالذهب، أنف رفيع، ووجه يُشع قدراً غير قليل من الجاذبية، التي ستتضاعف إن أطلقت شعرها المتواري تحت عصبة رأسها. لكن ما الفائدة؟ ما الفائدة من المعاناة، ثم ما فائدة الإستمرار فيها الى أن تغدو روتيناً، ثم إضافة المزيد والمزيد؟ ما الغاية من ركوب السفينة والخوض في العواصف، اذا كان ميناء الوصول مدمراً؟ تابعت التنظيف بعد أن اجبرت عقلها على إهمال الأفكار التي كانت تطفو على سطحه، كلما ازدادت حياتها تعاسة.

عندما حان وقت الغداء، جلس سعد وأمه الى جانب العجوزين ونرجس الطفلة، على كراسٍ التفت حول منضدة من الخشب المصقول الأنيق. تناثرت اطباق الطعام وتنوعت، بين المقبلات والرز الأصفر والدجاج المشوي. بدا ذلك لسعد كمائدة غداء ملكية، وكان يسترق النظر الى نرجس بين لقمة وأخرى. أما والدته فلم تفلح المائدة في تعديل مزاجها، ولا نكت ابي رشا القديمة. تناولت الأكل بتأنٍّ مُبالغ فيه، واكتفت برسم أثر بسمة على شفتيها، وتوسيعه عند الضرورة فقط. لم ترغب في إظهار كم التعكر في نفسها امام الجميع، وكانت تكره أن

تكون محط شفقة أي أحد. نظر اليها ابو رشا الكهل جانبياً ثم قال:
- «أتعلمين يا أم سعد؟ بخصوص ذلك الإجتماع، لا أتوقع منه نتيجة حسنة مطلقاً. النفايات والذباب يغزوان المدينة كغزو الجراد لمزرعة خضراء. الأحياء الراقية تغرق منذ اول ساعة من الأمطار، ولا نرى تحسناً في أي جانب خدمي. هل تتوقعين حقاً أن الحكومة ستخصص مساكن لحل مشكلة المهجرين في ظل هذه الظروف؟»
هزت هند كتفيها، وقالت دون أن ترفع بصرها:
- «الغارق يتعلق بقشة، ابو رشا. يجب أن نعمل ما علينا، وبعدها ندعو الله أن يتم ما يجب اتمامه، على خير. إذا سمحت لليأس بالتسلل الى كل دقائق تفكيرك فسوف تسود الدنيا في وجهك، وستتمنى الهلاك، بأسهل طريقة متاحة.»
تعجبت هند نفسها من الكلام. لم تتوقع أن يكون ردها مرتفع المعنويات الى ذلك الحد. بانت بعض التجاعيد على جبين ابي رشا قبل أن يجيب:
- «كلامك جميل، لكنه غير عملي. كان من الممكن أن يكون واقعياً لو كانت الأمور بيدنا، أو قسمٌ منها على الأقل. لكن لا شيء تحت سيطرتنا الآن. لا نحن، ولا اصحاب المناصب في دولتنا. طريقنا يجري رسمه ومراجعته كل يوم من قبل من لا نعرف ، ونحن وراءهم نسير كالأغنام خلف راعيها، دون أن نعرف الوجهة ولا الهدف. كل ما يعنينا أن بطوننا مكتفية، واننا نتزاوج وننجب، ونزيد لهم افراد القطيع لا اكثر. امرٌ مؤسفٌ، فعلاً.»

هنا تدخلت ام رشا في الحوار، ابتدأت الحديث بفم نصف ممتلئ:
- «هاه، انت تقصد نظرية المؤامرة. للصراحة، مع ما يحدث في العالم هذه الفترة، لا يمكن أن ننفي وجود تلك النظرية. لكن عبارتك الأخيرة ذكّرتني بنظرية في الأحياء، تزعم ان العوامل البيئية والخارجية التي يتعرض لها الكائن يمكنها التأثير على جيناته وتغيّرها. جيناتنا تحدد تركيب ووظيفة اجسادنا، وتفكيرنا ايضاً، ونحن نورثها لأبنائنا. ربما يفسر هذا اختلاف آخر جيل عن جيلنا المخضرم، وقد تكون نفس المؤامرة طالتهم، اثناء تكوّنهم في أرحام امهاتهم وهم لا يعلمون!»
ضحك ابو رشا مما سمعه من زوجته، وقال بنبرة اعتذار مخاطبا هند:
- «اعذري خيال ام رشا الجامح، فهي استاذة في علم الأحياء بالفطرة. انها تقرأ الكثير عبر مواقع اخبار العلم على الانترنت، ثم تطلق العنان لمخيلتها. مراهقة في سن الشيخوخة، ها ها ها ها!»

ابتسمت هند بصمت، كان الأمر مملاً للغاية بالنسبة لها. شربوا شاياً بعد الغداء، تلته عدة مهام سريعة انتهت بها اعمال المنزل عند ابي رشا. غادرت هند بهدوء تقود سعدا، تتبعها اعتذارات الرجل حول فقدانها للبطاقة، بعد أن دفع لها أجرها مع إكرامية خاصة، كونه اعتبر نفسه مسؤولاً غير مباشر عن تلك الخسارة. شكرته على لطفه وخطت خطى وئيدة نحو الشارع، ساهمة البصر.

لم يتمكن ذهنها الشارد من اعارة ادنى انتباه لكلام ابنها المدرار عن نرجس، وما تبادلاه من حكايات. وصلا الى المخيم بعد حوالي اربعين

دقيقة، ودلفا للخيمة، حيث نزعت هند عباءتها وجلبابها المتسخ بمخلفات التنظيف، لتتمدد على الفراش. أطلقت آهة طويلة عند إلقائها بثقل ساقيها وجذعها على الدثار. شعرت كأن اطرافها وعظامها تئن من التعب، وقررت أخذ قيلولة سريعة.

لكن قيلولتها امتدت الى ما قبل الغروب بقليل، ومع ذلك أحست هند أن عقارب الساعة تجر نفسها جراً مع حلول وقت الزوال. خرجت وتوقفت قرب مسجد المخيم، امام الشمس الحمراء الغاربة. كان الأطفال منشغلين بلعب مباراة كرة قدم بكرة مطاطية، في الساحة المجاورة لخيمتين من الخيم.

- «اذهب لجلب العشاء يا سعد... لقد حل الظلام.»

- «عشر دقائق يا أمي.»

عادت هند لداخل الخيمة، لعلمها بأنه سيتأخر لأكثر مما قال. وجدت هاتفها يرن، فحملته وقد ظهر على شاشته «جلال يتصل». نظرت الى الشاشة للحظات ثم قامت بالرد.

- «ألو، أهلاً جلال...»

كان جلال شقيق زوجها المتوفي، وأكثر مَن تعرفه من أقاربه. لم تكن كثيرة الارتياح اليه، لكنها وجدت نفسها مرغمة على احترامه، خصوصاً انه الوحيد الذي تواصل معها بعد وفاة أخيه. لقد بادر بالسؤال عنها وعن ابنها بعد عيشها في المخيم، بعد أن حصل على رقم جوالها من نقال شقيقه، حسبما قال، وكان ذلك اتصاله الهاتفي الثالث خلال الشهر

الأخير.

- «إذن ستذهبين للقاء المحافظ؟»

علم جلال بالمقابلة في اتصال سابق، ولم ترغب هند بإخباره عن ضياع بطاقة الدعوة، فأجابته بالإيجاب. بدأ بعدها بحديث يقنعها فيه بالعودة الى ديارها، وأن كل شيء على ما يرام هنالك. ما كانت تلك المرة الأولى التي يطرق فيها موضوع العودة، فقد شغل الأمر اغلب وقت مكالماته. إستمعت هند إليه بصمت ووجه عابس، تخللته همهمات تجاوب متقطعة.

انقبضت نفسها للموضوع، فقد بان من بين كلماته الواثقة صوت غريزته الذكرية، وقرأت رغبته فيها بوضوح. شيء منطقي، حيث انها سبق وأن انتبهت لأفعال وحركات مقصودة يقوم بها بلحظات انفرادهما الخاطفة، عند مكوثها في بيت زوجها، وطبيعي ان يستغل ضعف موقفها الحالي للوصول لغايته. استرسل في كلامه باسلوب آمر حازم، مفعم بادعاء الاهتمام، إلا ان تلك الطريقة لا تجذبها للرجال على الإطلاق.

- «هل استوعبتِ ما قلته يا هند؟ أنا أتحدث عن الحياة الكريمة لك ولطفلكِ. كل شيء اعددته لك ورتبته هنا، ولن تواجهي مكروهاً. دعي عقلك يستقر ويتخذ قراره السليم.»

- «نعم، فهمت...»

انتهى الحوار والإتصال بعد ذلك بقليل، رمت هند الجوال على الأريكة

وهي تتأفف، قبل أن يأتي سعد من الساحة.

- «لعبت حارساً يا أمي، ولم أدعهم يسجلون إلا ستة اهداف!»

- «حقا؟ وكم سجل فريقك؟»

- «لقد فزنا عشرة، مقابل ستة.»

- «هذا جميل... اين الساندويشات يا ولد؟»

- «سأذهب حالاً... جئت لآخذ النقود.»

نظرت اليه أمه نظرة عتب، في اثناء بحثه عن المال من محفظتها الجلدية.

- «ان وجدتَه مغلقاً ستذهب الى المحل قرب الكراج، هل سمعت؟»

صاحت خلفه، مما دفعه للهرولة، بدلاً من المشي السريع الذي كان يمشيه.

سارع سعد نحو زهير الأعرج صاحب الكافتيريا، التي كادت ان تكون متنقلة. منضدة معدنية عريضة بعجلات ثلاث، تحمل واجهة زجاجية ورفوفاً من النحاس المصبوغ، وعدة أدراج في الأسفل، مع عين غازية ومكان لحفظ قنينة الغاز، هو كل ما احتاج اليه زهير لإنشاء مطعمه البسيط. قدم فيها الواناً من الأكلات المحلية سريعة التحضير، كالفلافل والبيض المسلوق. اما رزقه فقد اعتمد كثيراً على استغلال عاهته لجذب الزبائن، كونه يعيش بقدم واحدة، بعد بتر احدى قدميه، اثر شظية اصابتها في الحرب العراقية الإيرانية في الثمانينات. غيّر زهير مكانه في الشهر المنصرم، واختار ركناً قريباً من مخيم النازحين، وثبت فيه بعد ان ازدهر عمله.

التحق سعد بجمع من الشباب والصبيان المتحلقين حول زهير، الذي انهمك بإعداد السندويشات بسرعة تضاهي سرعة المكائن. وصل الدور الى سعد بعد فترة، وظفر بآخر سندويشين من الفلافل. كان المكان شبه خالٍ، الا من زهير على كرسيه المدولب، وسعد الذي حملق بإعجاب في عجلات المنضدة. نظر زهير اليه مطولاً بارتياب، ثم سأله:

- «يا صغير، هل اسمك سعد؟»

اندهش سعد عند سماع اسمه.

- «نعم يا عم. هل تعرفني؟»

ابتسم زهير قبل ان يرد:

- «نعم، لأن امك ام سعد. سلم لي عليها، اتفقنا؟»

اومأ الطفل برأسه وأخذ سندويشاته وانصرف، قبل أن يناديه الأعرج ثانية.

- «تعال يا سعد... خذ نقودك، وقل لأمك انها هدية مني، آخر سندويشين لهذا اليوم.»

قال ذلك وغمز الى شاب واقف قربه كان يعاونه في العمل، وأردف بعد ابتعاد سعد:

- «هذا ابن الشابة التي اخبرتك عنها. يجب أن نتشبث بزبائننا الجدد، بكل ما نستطيع، وبالأخص إن كانوا إناثاً حسناوات. صحيح؟»

بعد قليل كان سعد جالساً لتناول العشاء مع امه، التي لم تُـبدِ رداً غير الإبتسام، عندما اخبرها بما قاله الأعرج. ما ان شرعا بالأكل حتى

انطفأت المصابيح وتوقف المبردة الصغيرة داخل الخيمة عن العمل، فانفتح المجال لموجات الهواء اللاهب باقتحام اجواء الخيمة. لقد انقطع التيار الكهربائي، كالمعتاد. اعتمد تزويد الكهرباء عندهم على التجهيز الحكومي والمولد المحلي الخاص، الذي كان يجهز المنطقة المحيطة بالمخيم ايضاً. وفي الآونة الأخيرة، مع اشتداد حر الصيف المبكر، كانت ساعات تجهيز المولد تتناقص، بسبب شحة الوقود، وعدم تمكن النازحين من دفع الأجر الذي يرضي صاحبه.

مرت ساعات المساء، وجلست هند تقلب جهات الاتصال في جوالها بدون هدف، بينما بدأ سعد بالشخير للتو. استحضر بالها مقطعاً من خطبة سمعتها منذ أعوام ولا تتذكر اين سمعتها، ظلّ المقطع محفوراً في بالها، محفوظاً كنقش أثري من زمن غابر:

«ذلك الذي يحيا دون مخاطرة لم يبلغ إدراكه معنى الدنيا بعد. إنما خُلِق الإنسان كما هو، ليخاطـر. في كل يومٍ يمر عليه، لا بد أن يكون أقرب الى غايةٍ إختارها بعقل، ولا بد أن يضع كلَّ ما يملك في سبيل الوصول، دون تردد. أنتَ يا مَن لا تعرف غايتك، جِدها بأسرع وقت. أما انتَ يا مَن تخاطر، فاستعد لأن تتألم كثيراً، قبل أن تُـكافـَأ كثيراً. لكن مكافأتكَ ستُنسيكَ كلَّ ما مررتَ به، وستكون مستحقة للعناء الطويل بحق.»

سهمت عيناها للحظات، قبل أن يقفز امامها احد الأسماء المحفوظة في الهاتف بإسم «م. المحافظة»، وكادت تقفز هي الأخرى عندما رأته.

كان ذلك رقم موظف أمن في المحافظة، اعطاه لها نائب المحافظ مع بطاقة الدعوة، وأخبرها ان عليها الاتصال به، عند حدوث اية مشكلة في دخول المحافظة يوم الاجتماع.

«سأدخل إذن... رغم كل شيء!»

انتعش بالها وغمر الارتياح قلبها، وطبعت قبلة عفوية نبعت من اعماقها، على شاشة النقال الصغيرة.

- ٦ -

قبع ابو صالح في السيارة متهالكاً خلف زميليه، بينما كان نظره يحدق في نقطة امامه لا وجود لها. لم ير شيئا كالذي رآه منذ قليل، ولم يجرؤ على التكلم عن الحادث.

«ماذا سيقولون عني... غير ان الظلام خدعني، او انني صرت اهلوس في آخر ايامي!»

امسك يده اليمنى باليسرى ومسح عليها بتأنٍّ. كانت ترتعش ارتعاشاً غير ظاهري. الأمر عجيب بالنسبة له. ابو صالح، الذي يهابه الرجال ويحسبون له الحساب حتى داخل التنظيم لقسوته، ينهي مهمته مرتعداً بسبب امرأة كبيرة السن قررت الانتحار في خرابة.

«هه!»

صاح مع نفسه متهكماً، ودبَّ الثبات في يده. لكن صورة نجاة الميتة في تلك الغرفة لم تترك مخيلته بعد. صورتها بوجه أبيض كهل وعينين غائرتين، تناثرت على وجهها شامات عجوز لا تقل سنيها عن السبعين. زاد شعرها الرمادي الخشن من رهابة شكلها. كان قد تجمد لوهلة من المنظر، الا ان عينيها بدأت بالتحرك من تحت الأجفان وأخذت شفتاها بالإرتجاف كأنها ستبدأ بالنطق، مما جعله يقفز ويركض نحو السلم. سمع اثناء هربه صوت جسد ينهض بين الأنقاض، لكنه لم يحاول رؤية

ما خلفه، بل تابع طريقه بالركض المتعثر الى حيث نقطة المغادرة. وها قد انقضت حوالي ساعة ولا يزال الحدث مشوشاً في عقله، كلحظة ذكرى أكل عليها الدهر وشرب.

في تلك الأثناء، بدأت العجلة بالتوغل في سلسلة بساتين، ظهر ملاذ الجماعة في آخرها. كان الملاذ بيتاً صغيراً من الطابوق والأسمنت غير المكسو، يحتوي على غرفتين مفصولتين بفسحة مربعة، كانت الجماعة تستعمل احداها للجلوس والأخرى للنوم. اما دورة المياه فقد كان فيها جحر، استوطنته الصراصير لردحٍ من الزمن قبل قدومهم. تم تقديم هذا المشتمل من قبل مالكه، وهو احد اصحاب البساتين الذين كانوا اما اخوة او اولاد عم، بعد اتفاق تضمن بالتأكيد اموالاً سخية، مع مسؤول في التنظيم الذي انتمى اليه المقاتلون، (تنظيم الدولة الإسلامية).

توقفت السيارة في الظلام خلف البناء، وترجّل الثلاثة. كان ابو صالح هادئ الخطوة يجر حقيبته خلفه، بينما بدا على رفيقيه نشاط اكثر. اجتازوا الباحة الأمامية ودخلوا الى مقرهم، حيث قام خبير العبوات ابو قتيبة بتشغيل الحاسب المحمول، للتبليغ عن نجاح عملية «الغرس»، كما اعتاد أن يُسمّيها. بينما اتجه ابو غالب مباشرة لتبديل ثيابه والوضوء، استعداداً لصلاة شكر كان يؤديها بعد كل عمل موفق يقوم به. خلع ابو صالح حذاءه الثقيل قرب عتبة الباب وارتمى على اريكة وثيرة بلا مساند، كانت تقابل شاشة التلفاز الرقمية الكبيرة التي توسطت الجدار. وضع ذراعه على جبهته، وحملق في آية قرآنية من سورة التوبة، آواها

إطارٌ مزجج اعلى الشاشة.

- «تلزمك بعض الراحة يا صاحبي.»

قال ابو قتيبة دون ان يدير وجهه عن شاشة الحاسوب. صاحبي! هاه... نحن اصحاب؟ وهل يصنع العمل لأيام محدودة صُحبةً بالنسبة لك؟ دارت الخواطر في ذهن ابي صالح دون ان ينطق حرفاً، وأردف الأول.

- «وعلى الأغلب فإنك تحتاج الى انثى ايضاً... لجسدك متطلبات لإستمرار العطاء. سَلني انا عن هذه الأشياء.»

- «نعم... ربما...»

- «سأكلم الشيخ ليهيأ لنا السبايا... لم يبقَ لنا الا يومين او ثلاثة.»

ظل مستلقياً لبرهة، ثم قام ونزع سترته وتوجه ليغسل وجهه واطرافه. جلس بعدها في الغرفة الثانية بقرب ابي غالب، الذي انهى صلاته وكان يسخن الماء للقهوة، باستعمال مسخن كهربائي محمول. تناول ابو صالح تفاحة من فوق البراد وشرع بقضمها.

- «الحموضة تملأ فمي ابا صالح، علامة نقص القهوة المعتادة.»

- «وربما تكون قد اسرفت، عندما افترست الدجاجة لوحدك قبل عدة ساعات، يا رفيقي.»

- «هاهاه... عيبٌ عليك هذا الكلام. هذا لم يأتِ من القهوة كما تعلم...» طبطب على كرشه الذي تهدل من بطنه كالعجينة، بعد خفضه للحزام. نظر اليه ابو صالح بلا اكتراث وبصق بذرة صغيرة كانت عالقة تحت

لسانه.

- «قل لي ابا غالب، ما رأيك في مصعب، الذي سيلتحق بنا غداً؟»

- «مممم... سمعت انه مقاتل متفانٍ. انه شاب من تونس حسبما اذكر، لقد رأيته في المعسكر في احد الأيام. لكنني لم افهم، هل تتطلب المهمة اربعة رجال؟»

- «يظهر ذلك...»

- «نعم، وربما سيكون مصعب احتياطياً فقط.»

- «لا ضير في ذلك ايضاً!»

عقّب ابو صالح وهو يرمي بقايا التفاحة، وارتسمت ابتسامة مبهمة على وجهه. لا احد يعلم بمهمته السرية، التي كُلّفَ بها قبل أيام، عبر اتصال شخصي من الشيخ نفسه. مرت دقائق اخرى، قبل ان يدخل ابو قتيبة الى الغرفة، مرفوع الصدر والهامة، وهو يعلن بنبرة قائد يتلو بيان النصر على الشعب:

- «الغرس اتى ثماره يا رفاق. لقد انتقل الهدف تواً الى الجحيم وبنظافة تامة!»

هتف ابو غالب بتكبيرة تلتها صيحة جذل، بينما همس ابو صالح بحمد الله وهَمّ بجلب الأغطية لتهيئة الفراش، من كومة أغراض تكدست في الرواق بلا نظام. النظافة التامة تعني عند ابي قتيبة عدم حدوث مشاكل جانبية، مما يستوجب حتماً شكر الله. ما أن لمست يداه الأقمشة المتراكمة، حتى فرّ جرذ اسود ضخم من زاوية مفتوحة منها.

«هنالك نقص في النظافة التامة في الفراش...»

غمغم ابو صالح متذمراً. لكن وجود الجرذ لم يشكل فارقاً له او للبقية. انه مخلوق يحاول ان يعيش بكل الطرق. وما المشكلة ان كان يعيش في القاذورات؟ أليس هذا البلد مليئاً بقذارة شعبه؟ ما نسميه نفاية يسميه غيرنا بيتاً، كما هو حال المتشردين. بل إن جبين الجرذ يندى من افعال بعض البشر هنا. استدرك ابو صالح تعاطفه الزائد مع الحيوانات الذي كان يلازمه منذ صباه، وحمل اغطيته وتوجه للإستراحة، لعله ينال قسطاً منها قبل بدء فترة مراقبته الليلية.

انها الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، حيث غط ابو قتيبة في سباته بينما جلس ابو غالب في الغرفة الأخرى مقابلاً لأبي صالح، الذي مدد رجليه على الاريكة وحمل جهاز تحكم التلفاز بيده. استهل ابو غالب الحديث، بينما كان زميله يغير القنوات الفضائية على الشاشة بلا تريث.

- «جميلٌ ان يرافقك احد اثناء النوبة. تعلم كيف يمر الوقت بطيئاً بعيداً عن الجوال...»

- «بالتأكيد.»

- «وهل هجرك النعاس كالعادة يا ابا صالح؟»

- «نعم... لا مفر من ذلك الأمر. مؤكد انني لن اهجع قبل الرابعة... وربما بعدها.»

- «هل تحب ان نتبادل المناوبات؟»

- «كلا... لا داعٍ لذلك، فالنوم اكثر من ثلاث ساعات ليس من خصالي!»

قالها وركز على الشريط الاخباري لإحدى الفضائيات المهتمة بأخبار العراق، حيث كُتبَ بخط واضح نبأ مقتل رجل دين معروف في بابل، مع اثنين من افراد حمايته، اثر انفجار عبوة ناسفة مزروعة في طريق خارجي على سيارته.

- «انظر يا ابا غالب... الآن لم تبقَ امام المجموعة سوى مهمة واحدة في هذه المدينة. امامنا يومان فقط.»

- «بلى... التوفيق من الله.»

ومهمة ثانية بالنسبة لي! قال ابو صالح هذه الأخيرة في نفسه، وهو يحدق في الآية المزججة اعلى الحائط. استهل ابو غالب حديثاً طويلاً بحجة تعجيل مرور الزمن، وانطلق يروي قصة من ايام شبابه الضال على حد تعبيره، وكيف كان يلهث خلف بنات خاله اللاتي زرنهم في احدى المناسبات.

- «لقد كنتُ مراهقاً... تعلم كيف تؤثر فيك ابسط الأشياء في ذلك العمر. تكون هشاً كما يقال، وبدت الفتاتان لي كصرحين من الإغراء اللعوب. كانت الصغرى ربما في الخامسة عشر، اي تكبرني بأعوام قليلة، لكن انحناءات جسدها الواضحة، تحت ثوبها القطني الضيق، جعلنني كالمسحور. لقد ضاعف ضيق ملابسها من فتنة الجسد اضعافاً وأضعاف... ثم دخلتُ الى المطبخ ووجدتها مستندة على الجدار، وقد شمرّت الأكمام، كاشفة عن ذراعين كالزبدة التي لا تعكر صفوها شائبة. ابحرت عيناي في قوامها المشدود، وطار ما تبقى من عقلي. تقدمت

نحوها وتصنعت التعثر، لأسقط عليها وأروي عطشي لها، عبر تلامس اجسادنا العابر ذاك! يا الله، لن أنسَى ذلك الإحساس ما حييت.»

نظر اليه ابو صالح بجبين مقطب بمزيج من الشفقة والإنزعاج، اما أبو غالب فقد ضاقت عيناه خلال الحديث مندمجة مع الكلمات، والتوت قسمات وجهه بحنين واضح لتلك اللحظات. ثم هز رأسه في النهاية، وبدا كمن صحا للتو من خيالات بعيدة المنال.

- «الحمد لله... سنجد ما هو افضل من هذا، عند الباري عز وجل.»

- «ان شاء الله يا ابا غالب.»

لم يكن ابو صالح من هواة الأحاديث المطولة، الا إن ذلك الحديث قد ذكّره بنفسه في فترات من حياته. كانت الشهوة تسيطر عليه حينها، وقضى عليها لاحقاً بالنضج والبحث عن هدفٍ لعيشه يقتنع به. ملّ من التلفزيون وأحس بالإسترخاء يخيم على اطرافه. كانت نوبته ستبدأ بعد حوالي ساعة.

- «سأدخل لأنام يا ابا غالب. تصبح على خير.»

انها السادسة صباحاً. كان الضوء خافتاً في غرفة التلفاز، بينما شرع الوهج الأزرق لسماء الفجر بالظهور من خلف الستائر المسدلة. جلس ابو قتيبة مقابل شاشة الحاسوب، يقلّب مواقع الاخبار العالمية بحثاً عن جديد، عندما اجفله صوت حجر ضرب الباب الخارجية للملاذ. رفع رأسه للحظات، ثم اتجه لينظر من النافذة. لم يكن ثمة أثر لشيء مريب. عاد للجلوس بعد قليل، ليتكرر صوت الحجر مرة ثانية وثالثة. التقط

مسدسه الكاتم وخرج متسللاً من الباب الصغيرة الخلفية نحو الباحة الأمامية. مشى متشنجاً وبمنتهى الحذر، حتى وصوله اليها. كانت خالية تماماً، فدار على عقبيه ودخل الى البيت. في لحظة اغلاقه للباب هوت على رأسه عصا غليظة اسقطته في مكانه، كانت محمولة بإحكام بيدي شخص ضخم عريض المنكبين، لم يكن سوى ابي صالح.

- ٧ -

استعصى النوم على هند ليلة السبت، كما استعصى عليها في كثير مما سبقها من ليالٍ. تقلبت كثيراً في فراشها الضيق، وطفقت عيناها تتنقلان في انحاء الخيمة، بين ظلال متراقصة على القماش السميك من الداخل، كان يخلقها بصيص المصباح المحمول الذي شارفت طاقته على النفاذ. اشتد الحر، وبالكاد لطفته دفقات الهواء المتقطعة القادمة من المبردة. بعد أن طالت مدة تحديقها في محيطها، نهضت متوجهة لخزانة خشبية قصيرة، كانت مركونة بعيداً، وأمسكت آخر درج فيها. أخرجت مفتاحاً صغيراً من جيب ثوبها ووضعته في مكانه المخصص في واجهة الدرج، ثم ادارته وسحبت بقوة فانفتح، كاشفاً عن علبة بلاستيكية بيضاء، تحتوي على شريط حبوب مهدئة.

«أنتن أنيسي في الليالي الطويلة...»

ابتلعت هند حبتها الثانية لذلك اليوم، وهي الحبة قبل الأخيرة في الشريط، مبتغية الراحة لعقلها الرافض للاسترخاء، قبل أن تقفل الدرج وتعود للاستلقاء على أريكتها المتداعية. بعد قليل كانت عيناها مغمضتين. أما خارجاً، فقد اشتدت قوة الرياح، مهيجة غبار الأراضي الجرداء المجاورة نحو السماء، وفاحت رائحة التراب بينما مرت الساعات بتسارع.

- «يا الله! إنها التاسعة.»

هتفت هند حالما شاهدت ساعة الجوال. كان كل شيء أصفراً مغبراً، ولم تظهر أشعة الشمس برغم فوات وقت الصباح الباكر، مما دل بوضوح على وجود عاصفة ترابية.

- «إنهض يا سعد!»

أسرعت بخطوات رشيقة لارتداء عباءتها وحمل الأغراض، في الحين الذي قام فيه سعد بعيون ناعسة قائلاً:

- «أنتِ دائمة التأخر في أوقات الضرورة...»

- «لا تثرثر الآن، هيا بنا...»

- «وماذا عن الفطور؟»

- «سنأكل في الطريق.»

بعد هنيهة كانت هند تصطحب ابنها باتجاه الشارع الرئيسي الذي يمر بمنتصف البلدة. لم يكن المسير سهلاً، في ظل الغبار الكثيف الذي غطى كل شيء، وامتد مجال الرؤية لأمتار معدودات فقط أمامها. تشبع انفها بالتراب الذي لم يتمكن الوشاح الناعم الملفوف على وجهها من حجبه، وانتابتها نوبات سعال متفرقة. في النهاية تمكنا من صعود باص متوجه صوب مركز المدينة. تحرك الباص بسرعة منخفضة، ماراً بالمساحات الصحراوية التي كانت تفصل المخيم عن أطراف المدينة، في حين بدت الأرض والسماء كقطعة واحدة من اللون البرتقالي الغامق. بعد قطع مسافة غير هينة، وصلت العجلة الى نقطة توقف مفاجئ.

نظرت هند الى شباك المقدمة، لترى طابوراً من السيارات الواقفة.

- «مدخل المدينة مزدحم للغاية اليوم.»

فكرت هند بينما سمعت صوت السائق، وهو يكلّم شخصاً ما على الهاتف المحمول. أنهى المكالمة ثم أعلن للركاب:

- «سنسلك طريقاً وعراً، لكنه خالٍ من الزحام أيها السادة.»

انحرفت السيارة بحدة عن الشارع الى الطريق الترابي، ومنه جانباً الى درب مقفر. أدت الوعورة الى موجات اهتزاز متذبذبة القوة سرت في الركاب، ولم يظهر أثر لمركبة في هذا الطريق. استمر الوضع كذلك حتى ظنت هند أنهم قد ضلوا في تلك الصحاري وذلك الطقس المريع، إلا أن جسراً بان لها، وزرع فيها شيئاً من الراحة. كان الجسر يعبر نهراً صغيراً، هو بلا شك فرع من فروع نهر الفرات. صعد الباص عن التراب صعوداً منحنياً مستقبلاً بداية الجسر، الا أن شيئاً ما سبّب فقدان توازن السيارة واندفاعها بقوة نحو الحافة، لتهوي الى النهر الجاري في الأسفل. آخر ما رأته هند، قبل اصطدام رأسها بجانب السيارة، كان مياهاً غزيرة تتدفق من فتحات الزجاج الى الداخل، وسط صيحات الاستنجاد.

شهقت هند بعمق مع توسع حدقتي عينيها. دخلت لرئتيها دفعة من الماء الذي كان يغمرها من كل صوب، مما فاقم شعورها بالغرق، واجتاحها الهلع. لم تكن تتقن السباحة، بيد أنها أخذت تتخبط بأطرافها دافعة جسدها للأعلى بشق الأنفس، الى أن وصلت الى السطح. إستنشقت نفساً طويلاً من الهواء وتلفتت حولها باحثة عن ناجين،

بلا جدوى. على سطح النهر، كانت عدد من الجثث تطفو وتتقاذفها الامواج، بينما طغت السماء الحمراء بلونها على المياه التي انسابت تياراتها كجدول من الدم المخفف بلون الماء.

«سـعـد!»

ما أن خطر ببالها حتى غاصت من جديد بحثاً عنه. كانت سيارة الركاب مرتكزة على مقدمتها وقابعة في قاع النهر، مع فقدان أي أثر لأجساد أخرى. بعد أن يئست من البحث، عادت للسطح مرة أخرى. كانت تصرخ بجنون:

«أين ذهبت يا سعد؟»

سبحت هند باتجاه الضفة القريبة وخرجت الى اليابسة. استلقت لتريح جسدها المشبع بالماء كقطعة اسفنج مبللة. عاد الغبار ليغمر انفها وحنجرتها، بعد أن استخرجت المياه عدة مرات من جوفها. كانت السحب الترابية تكسو المنظر المحيط بها، حاجبة الرؤية عدا عن شبح سور من النخيل المتراصة في الأفق البعيد. جلست هند بمفردها وسط ذلك العدم، كأنها منفية الى عالم آخر. كان المشهد قابضاً للنفوس، وموحشاً لأبعد الحدود، لكن بالها انشغل بأمر أهم.

«يجب أن أبحث عنه... لا بد انه لم يبتعد كثيراً.»

نهضت واتجهت نحو الطريق الذي جاء منه الباص. كانت خطاها تترنح احياناً، بالتزامن مع اشتداد عصف الهواء الملوث، والذي كان مصدر الصوت الوحيد في الأرجاء. حتى الأرض لم تكن مستقرة، حيث

كانت ترخو تارة وتتصلب تارة أخرى تحت قدميها الضئيلتين، نتيجة لإختلاط الجفاف مع الرطوبة وتوزعهما بغير انتظام، في الحين الذي خففت فيه العاصفة من حرارة الجو، بواسطة حجب أشعة الشمس.

«سوف أجد أحداً من أهل المنطقة على الأقل.»

استمرت هند بالمشي طويلاً. كانت تقف للإستراحة بين آنٍ وآخر، وتمد البصر للعثور على منزل أو بناية من أي نوع. مرت برهة من الزمن على ذلك الحال، قبل أن يتراءى لبصرها شكل بناء صغير. حثت الخطى نحوه لتجده بيتاً قروياً، واقفاً بإنفراد وسط العراء.

«وأخيراً...»

كان البيت من طراز قروي تقليدي ذي طابقين، مبنياً من طابوق غير منتظم الحافات، ظهرت أجزاء منه من بين الأسمنت الذي غطاه. تكونت الواجهة من غرفتين متلاصقتين، احداهما بباب خشبي عال تؤدي اليه بضع درجات، بينما الأخرى ذات باب جانبي من الحديد الثقيل. اتجهت هند نحو عتبة الباب الخشبي وطرقت الباب عدة طرقات. لم يستجب أحد. بعد عدة محاولات، نظرت الى داخل البيت من الشباك المجاور ذي الزجاج شبه المزخرف. مسحت التراب الذي كساه ونظرت، لكنها لم تستطع تبيان شيء بوضوح. دفعت الباب لتجدها مفتوحة، فدخلت بخطى حذرة الى الداخل.

«مرحباً... هل من أحد هنا؟ أحتاج للمساعدة...»

أغلقت هند الباب، محدقة في الصالة التي أصبحت واقفة فيها.

كان جوها أبرد، والعتمة سائدة بفعل الطقس. اتجهت باحثة عن أزرار الأضواء حتى وجدتها وضغطتها، فأنارت الغرفة بالكامل. ظهرت أمامها صالة استقبال ضيوف عربية تقليدية، عُلّقت على جدرانها عدة اعمال فنية يدوية الصنع جسدت مراقد دينية، بالإضافة الى منظر لأحصنة بيضاء تقف امام عشب اخضر، بينما فرشت الأرض بسجاد خفيف بدا محلي المنشأ هو الآخر. احتوت الغرفة ايضاً على اريكتين خشبيتين بإطار مزخرف ببساطة. خرجت بعدها الى باقي الغرف. كان الباب الحديدي الخارجي هو باب المطبخ، واحتوى الطابق الأرضي ايضاً على بهو وسطي، اطلت عليه غرفة نوم موصدة تماماً، مع حمام ودورة مياه. عادت هند الى البهو ونظرت الى السلم والطابق العلوي.

«مرحباً! يا أصحاب البيت!»

إنعكس صدى صوتها ورجع إليها، معلناً خلو البيت من القاطنين. بدأت تحس بشيء من الألفة فيه، واستغربت ذلك الإحساس بينها وبين نفسها.

«ربما لأنه يشبه بيت طفولتي الى حد ما...»

فكرت هند في البحث عن هاتف، لكن ذلك لم يُجدِ نفعاً، حيث أن كل ما وجدته هو هاتف أرضي قديم في المطبخ، واكتشفت انه معطل. ضربت السماعة في مكان الاغلاق.

«هذا حظٌ عاثر بالفعل!»

فجأة سمعت هند حسيساً مستمراً، تصاعدت وتيرته من الخلف.

استدارت لتقصي مصدره، وكان من ركن جهاز الطبخ البعيد، الذي أخفته الثلاجة. ازدادت دقات قلبها قوة وهي تتقدم نحوه. كان الصوت لبخار يتصاعد من ابريق موضوع على النار. اطفأت النار ونظرت حولها بوجل.

«إذاً ثمة أحد كان هنا... قبل قليل»...

انطفأت الأنوار في تلك اللحظة من دون سابق انذار، وغلف الظلام الحالك المنزل برمته. مدت هند يدها نحو منضدة المطبخ للبحث عن قداحة، كانت قد لاحظت وجودها قبل قليل. ضربت اصابعها عدة أماكن فارغة قبل أن تجد ضالتها.

«هذا ما كان ينقص... أن تنقطع الكهرباء.»

التقطت القداحة وقامت بإيقاد شعلتها النارية الصغيرة. تبددت الظلمة لمسافة قليلة، مكنتها على الأقل من تبيان ملامح الأشياء المحيطة بها. سارت ببطء نحو البهو من جديد، ليفاجئها ضجيج متكرر قادم من الطابق العلوي. نظرت الى الأعلى بتردد. تلاشى الضجيج، قبل أن تنتبه الى انها لم تستكشف ما فوق السلم حتى الآن.

بدأت بصعود السلم درجةً درجة على ضوء اللهب الباهت، متطلعة الى الخلف لعدة مرات. شعرت بالظلام يكاد أن يطبق عليها، غير إنه كان يتوقف في آخر لحظة. انتهت الدرجات ووصلت الى الرواق العلوي، ووقفت تتفحصه. كان رواقاً قصيراً تطل عليه غرفة نوم ومخزن، وكلتاهما مقفلة. انتظرت هند قليلاً لعل الصوت يظهر من جديد، بلا جدوى، ثم

تذكرت أنها لمحت سلسلة مفاتيح كبيرة، معلقة على مسمار في المطبخ.
«من المؤكد أن مفاتيح هذه الغرف فيها.»

نزلت السلم بخطى أكثر ثقة، وانتزعت السلسلة المعدنية من الحائط، وعادت متوجهة للصعود، لكنها تسمرّت مصعوقة في مكانها عند باب المطبخ. أمامها في وسط البهو، حلقت عينان لامعتان غير بشريتين في سواد العتمة. حركت القداحة قليلاً فاتضحت الصورة كاملة. كان يقف هناك متحفزاً منتصب الساقين، شاخصاً ببصره نحوها.

«ذئب!»

- ٨ -

تمعن عبود الشحاذ في الكتابة الذهبية وقد ضاقت حدقتاه، كمن يحاول فك شفرة نص مكتوب على لوح مسماري. نبست شفتاه بلعنات متفرقة بينما كان يتهجى الحروف.

- «من اين جئت بهذه يا ابله؟»

- «لقد وجدتها في وسط الشارع. ماذا فهمت منها؟»

- «فهمتُ انك ذو قملتين...»

- «اخرس، سخيف. قل لي كيف استفيد منها.»

نظر اليه عبود بطرف عينه، بشيء من الاحتقار. لم يفهم من الكلمات الا كلمة «المحافظة»، الا ان اهمية البطاقة كانت واضحة من طريقة الإعداد والتغليف. ربما يمكنه ان ينال منها مكسباً غير مسبوق.

- «انظر يا سيف. هذه بطاقة لحفل زفاف منتهي التاريخ، لكن شكلها اعجبني. سأشتريها بألف دينار.»

- «ألف فقط؟ هذه ربما تكون قد كلفت ثلاثة آلاف على الأقل...»

- «على اعتبار انك كنت والد العريس، اليس كذلك؟ لن تحصل على غير الألف. خذه قبل أن أغير رأيي!»

رضخ الفتى بعد تردد، وتركه عبود وابتعد محني الرأس، بعد ان أخفى المغلف في جيبه. كان يفكر في الشخص الذي يمكن ان يقرأها

له. يجب أن يكون شخصاً اميناً لا يخدعه، وهذا لا ينطبق على فرد من جماعته. ممكن أن يسأل اي احد يمر في الشارع، لكن ذلك سوف يجعله في الحال موضع شك في إنه قد سرقها.

عاد عبود يلعن عدم تعلمه للقراءة بشكل جيد، على الرغم من كونه في الواقع محظوظاً لتعلّمه ذلك القليل الذي يعرفه عن الهجاء. لقد تبرع بتلقينه الحروف احد المعلمين المتقاعدين، قبل سنين عدة. لقد رآه مع احد رفاق التسول، وهما يفترشان مدخل زقاق يقابل مدرسة ابتدائية، بجوار منزله. كانت المدارس من احب اماكن كسب الرزق لعبود، حيث تحمّل شتى انواع الإهانات من الأطفال المارين، في سبيل حصد صدقات اولئك القلّة من التلاميذ المرفهين، الذي كانوا يكرمونه بمبالغ تنسيه معاناته لأجلها.

تصدق المعلم عليهما في يومها بمال وساندويشات فاخرة من الهامبرغر، ثم طفق يقنعهما بضرورة التعليم، وأهميته في العيش والنجاة. ابتدأ المعلم حديثه وقد انحنى مُقرّباً وجهه إليهما، اثناء تناولهما آخر لقمة من الغداء. كان صوته عميقاً، بطيء الإيقاع، مما زاد ثقل وقعه على المسامع.

- «العلم اهم ما في الحياة. اعرف انكما قد سمعتما هذا من قبل ولا بد انكما تستهزءان به، لكنها الحقيقة التي لا مفر منها. التعلم يجلب العمل، والعمل يجلب النقود، ورغد العيش. انظرا... لقد ولدتما في عوائل فقيرة، وعشتما في عذاب مزمن بسبب الفقر، ولم يكن له من

سبب سوى قلة العلم. لو أن اهلك كانوا متعلمين، ما كان حالك هكذا، تستجدي من الناس. أليس كذلك يا عبود؟»

كان عبود صامتاً، إذ انشغل فكره في إيجاد مناورة حوارية تدفع المعلم لشراء حلوى او علبة عصير له، إلا ان مكره لم يسعفه تلك اللحظة. خرج جوابه مفعماً بالبراءة الكاذبة.

- «بالتأكيد يا استاذ. قضيت عمري اتطلع الى طلاب المدرسة بعين الحاسد. لو كان لي اهل وبيت، ما كنتُ لأتمنى شيئاً غير الدراسة...»

كان قلب المعلم يتفطر من هذا الكلام، فوعدهما بأنه سيخصص لهما ساعة من مسائه كل يوم، يقوم فيها بتلقينهما الحروف، الى أن يشعروا انهم قد اتقنوا القراءة. لم يرق الأمر لرفيق عبود في البداية، معللاً ذلك بعدم رغبته في التعلم، كما إن المعلم بدا صارماً وجاداً في كلامه، وخشي أن يؤذيه عندما يكتشف ذلك. الا ان عبود رأى ان الإستفادة المادية من الرجل خلال تلك الأيام لا تعوض، فضلاً عن كونه تغييرا لروتين الاستجداء الذي سئما منه. كانت غلبة الرأي في النهاية لصالح عبود، كالمعتاد، وقام المعلم بكتابة عنوان البيت لهما في قصاصة ورقية، ليستدلا بها بسؤال الناس، في حال تاها عن الطريق لعنوانه.

تعاقبت مساءات من الدروس، نما فيها حافز عبود، وتحولت الغاية من استغلال الرجل بإثارة عطفه، الى استكشاف معاني تلك الخطوط المتصلة التي تدعى كلمات. كان يجدها في كل مكان، ولم تعنِ له اكثر من خربشات، أو زخارف اذا كانت مرسومة بجمالية. تمكن عبود من

حل طلاسم الكثير من الكتابات بعينه الواحدة، وكان سريع الفهم مقارنةً بصديقه، الذي تظاهر بالإستيعاب أغلب الوقت، في الحين الذي لم يدخل عقله المتصلب الا النزر اليسير من المعلومات.

سارت الأمور على ما يرام، حتى جاء ذلك المساء، عندما كان المتسولان جالسين على الكراسي البلاستيكية المخصصة لهما في صالة الاستقبال، حيث يجري القاء الدرس. دق جرس الباب فذهب المعلم العجوز للرد على الطارق، في الوقت الذي ظلت عينا عبود تتفحصان الغرفة ملياً. اتى الرجل بعد دقائق واستكمل تعليم الصبية، وانتبه عبود الى انه قام باخفاء اوراق من الدولار داخل كتاب موضوع على رف خشبي، وقف عليه بانتظام صف من الكتب التاريخية واللغوية. لم يفهم عبود مسوغ ذلك الفعل. بعد قليل، نودي على العجوز من داخل البيت، فترك الولدين وحيدين للمرة الثانية، وخرج من الباب الخلفي للصالة الطويلة.

لمعت الفرصة امام عبود، كما يلمع حجر ألماس امام لص محترف. نظر رفيقه اليه بدهشة، وهو ينهض من كرسيه، ويتجه على رؤوس اصابع قدميه صوب الكتاب، الذي صار في نظره خزانة تخفي ثروة باهظة. وصل اليه، والتقطه مُقلّباً اياه على عجل. نطق بحزم كلمات متسارعة وواضحة، برغم انخفاض صوته.

- «قم وراقب الباب الخلفي من خلال الثقب. اذا جاء من بعيد اخبرني في الحال، وستقول انك كنت تشاهد التحفيات في المعرض الزجاجي،

هل فهمت؟ قم، أسرع!»

نفذ الصبي الأوامر ومازالت الدهشة تسيطر عليه، لكنه ادرك خطورة الموضوع، وأن من المؤكد الخروج بغنيمة دسمة منه. اما عبود، فقد غرق في خيبة أمل، عندما وجد اوراق العملة. تكون المبلغ من خمس ورقات، واحدة منها فقط ذات المئة دولار وما تبقى كان فكة، فلم تتجاوز الحصيلة مئتين. زفر عبود من فمه بقوة، فقد منّى نفسه بمبلغ اكبر. انتشله بعنف من بين الصفحات دون تردد وأرجع الكتاب الى وضعه. كانت المغامرة تكمن في احتمال كشف المعلم لفقدان النقود قبل انتهاء الدرس، الا ان الحظ حالفهما ولم يحدث ذلك، وغادر الأثنان البيت بعد ربع ساعة بصورة طبيعية. تلك كانت، بطبيعة الحال، آخر زيارة لهما لمنزل الرجل، لأن العودة اليه لم تعد متاحة بعد سرقة المبلغ.

- «نصفٌ لك، ونصفٌ لي...»

قال عبود مخاطباً نديمه، وهو يناوله اربعين دولاراً بيده. نظر الصبي الى حصته ثم الى الأوراق المتبقية، قبل ان يواريها عبود في جيبه، وانتفض:

- «توقف! هل تقول انك وجدت ثمانين؟ انا ارى أن المجموع مئة يا محتال!»

- «يا احمق... ورقتان لك وورقتان لي...»

- «انت محتال... ورقتاك تحملان ارقام خمسين وعشرة... يعني إنكَ اخذت ستين واعطيتني اربعين!»

قطب عبود جبينه. لم يتوقع ان يفطن هذا الصغير محدود الذكاء الى ذلك. بحث في باله عن عذر مقنع ووجده في الحال.

- «اخرس يا ابله! انا من اكتشف المال وانا من جلبه. لولاي لضاعت الفرصة منك، وأنت جالس تحملق كالمعتوه. بالطبع حصتي اكثر من حصتك. اذهب ولا تفتح فمك ثانية.»

احس الفتى بمنطقية الكلام، فابتعد وهو يحك رأسه، غير عالم ان عبود كان قد استحصل لنفسه ورقة المئة دولار قبل تقاسمه للنقود.

هكذا قضى عبود سنين صباه، يحتال ويمكر ليقتات العيش. خدمته سرعة بديهته واقتناصه لفرائسه في اللحظة المناسبة، كالصقر الجارح. وها هو يمشي بالقرب من موقف الباصات، وتحت يده غنيمة اخرى، متمثلة بتلك البطاقة الفاخرة المغلفة. ارهقه التفكير بذلك الذي سيقرأ محتواها له بأمانة، فالدنيا تخلو من الصدق، على الأقل بالنسبة له. دارت في مخيلته وجوه من يعرفهم، من اصحاب المحلات والعربات كألبوم صور، اختلطوا بوجوه العابرين امامه، حتى توقف عند وجه خيالي لشابة حسناء، لم يعرف عنها الا جمال الصوت.

كانت تعيش في بيت راقٍ، يطل على شارع معروف وسط المدينة. لقد طرق عبود بابه ذات يوم قبل حوالي شهرين، وحدثته الفتاة دون ان يراها. خرجت كلماتها من خلف الباب برقة زاخرة بالأنوثة، اثارت قشعريرة في جسمه الفتي. تصدقت عليه بكرم، وأخبرته الا يكرر مجيئه كثيراً، لأن امها تكره المتسولين للغاية، وسوف تزجره اذا ظفرت به.

كانت من الطيبة وسعة القلب بحيث انها أخذت تستفسر عن تفاصيل حياته، مما اجبره على سرد قصته المفتعلة العتيدة لها. تأكد له ما قالته عن والدتها عند ذهابه مجدداً بعد اسبوع، بيد إن صوتها علق في باله ردحاً طويلاً. بمجرد تذكره لها، شعر انها هي الشخص المنشود في تلك اللحظة، وهرع ليستقل اول باص يمر بشارع منزل الفتاة.

مرت برهة من الزمن، قبل ان يجد عبود نفسه امام البيت، يدق زر الجرس بابهامه الأيسر. أحس بحرقة في اذنه التالفة دفعته الى هرشها بقوة. كانت تلك الحالة تداهمه عند التوتر المفرط، او عند الخوف المفاجئ من عارض ما. استمرت اصابعه بالحك الى أن اطرب مسمعه صوت عذب.

- «من الطارق؟»

اختفى كل احساس مزعج منه، وحلّ محله استقرار وهدوء، حتى لم يعد يسمع من حوله شيئاً. لم يكن قد حضّر ما سيقول، فجاء جوابه بارتجال متلعثم.

- «انا عبد الله... توفي ابي في انفجار... والآن امي مريضة، ولي اخوة صغار... نحن نحتاج اية مساعدة... يوفقك الله.»

تأخرت الشابة قليلاً قبل ان تسأل من جديد:

- «لقد جئت الينا سابقاً، وساعدتك، أليس كذلك؟»

خفق قلب عبود بغبطة لتذكّرها له، وقال:

- «نعم يا آنسة... مر زمن على ذلك، والآن اطمع في ما يجود به كرمك...»

شعر انها غابت في الداخل، ثم عادت مع النقود.

- «سأساعدك، لكني آمل ان لا تعود قريباً... مفهوم؟»

- «كوني متأكدة من ذلك... أقسم بروح أبي إنني لن أعاود السؤال قبل مضي شهر...»

ناولته النقود من فوق الباب، وأخذها وهو يردد عبارات الإمتنان، قبل أن يطلب طلبه الثاني، بكل أدب واستكانة.

- «يا آنسة...أرجوك، لدي طلب آخر. بسيط، لكنه عندي كبير!»

شرح لها انه وجد ظرفاً في الشارع يحوي بطاقة تبدو ثمينة، وليس له صاحب. لم يفقه مضمونها، ولم يستنجد بغيرها خوفاً من ان يستغلوا جهله ويخدعوه. وافقت الفتاة على قراءتها له، فمررها بكل ثقة لها. اطرق قليلاً وفكر انه لو تيسّر له تمرير نفسه من ثقبٍ في الباب لقام بذلك ايضاً وبكل سرور. من أين يأتي بأنثى تتحدث اليه، وتكون شابة ميسورة وبذلك الجمال، الذي رسمه في خياله على اساس صوتها فحسب. قفزت عيناها على السطور وقالت له بابتهاج:

- «اليوم يوم سعدك يا عبد الله!»

- ٩ -

دامت صدمة هند لدقيقة، طالت كأنها دهر، تسابق بعدها دماغها مع الزمن لإيجاد مخرج لما يحصل، وما ترى أمام عينيها. زمجر الذئب زمجرة خافتة، أخذت تعلو مع تقلص اطرافه واستعداده للتحرك. تراجعت هند لا شعورياً بضع خطوات، داخلةً للمطبخ. كانت تحتاج لأي شيء ممكن استعماله كسلاح أمام الوحش. ارتجفت اطرافها رعباً بينما بدأ العرق البارد بالتصبب من جبهتها، وبلّل شعراتها الشقراء النازلة من تحت حجابها. كانت احدى يديها تحمل القداحة، فمدت يدها الثانية للوراء، تتلمس الأغراض على المنضدة بتخبط عنيف. أحست بتيبس في فمها وحنجرتها، بينما كان النبض يدق في رأسها وأذنيها، كدق الطبول. اندفع الذئب قافزاً باتجاهها، في اللحظة التي استشعرت اناملها شيئاً معدنياً ثقيلاً. برد فعل آني، اطفأت القداحة ورفعت الثقل بكلتا يديها، ورمته باتجاه الذئب، راكضة نحو باب المطبخ الخارجية بنيّة الهروب، لكن الباب لم يتحرك قيد أنملة.

«يا إلهي! انا لم ادخل من هنا اصلاً!»

كانت قد نسيت انها دخلت البيت من باب الصالة. جربت مفاتيح السلسلة الا أن أحداً منها لم يحقق المطلوب. في تلك الاثناء عم الصمت الأجواء، وانتبهت لاختفاء الزمجرة خلفها. استدارت لترى المطبخ فارغاً،

على ضوء لهب القداحة. مشت بترقب بالغ نحو البهو. كان الذئب جالساً في الجانب البعيد منه، وبدأ بالدمدمة فور رؤيته لهند. لم تلف خياراً سوى ان تتحرك ببطء بمحاذاة الجدار نحو السلم، بينما كانت عيناه مثبتتين عليها، واذناه تدوران مع حركتها. وطأت قدمها اول درجة مع بدء الحيوان بالزمجرة مرة أخرى. ألقت عليه نظرة أخيرة، قبل أن تطفئ الشعلة، منطلقة في السلم صعوداً. تعثرت لعدة مرات بحواف الدرجات، وكانت تستعيد قيامها بعسر، الى أن وصلت للطابق العلوي.

منعتها الظلمة الدامسة في الأعلى من تأكيد أماكن أبواب الغرف، فاسترجعت صورة الطابق في خيالها، وافلحت في إمساك مقبض باب غرفة النوم القريبة منها. جربت مفاتيح السلسلة باضطراب متزايد، بينما كانت أنفاسها تتسابق مع نبضها. اطلق القفل صريراً عند رابع مفتاح، فدفعت الباب واغلقته خلفها. اوقدت هند القداحة ثانية، لتجد امامها غرفة نوم قديمة، بدا التآكل على زواياها وأثاثها، المكون من سرير وخزانة ملابس، تقابلها منضدة ذات مرآة بيضوية عالية. بحثت عيناها عن نافذة تمهد لها طريقاً للخروج، لكنها لم تلقَ غير نافذة مربعة صغيرة في الركن العلوي للحائط.

«من المحال أن أمر من هذه...»

التقطت هند مصباحاً يدوياً وجدته على المنضدة، وعلى ضوئه بدأت بتفقد موجودات الغرفة، على أمل إيجاد سلاح. لم تلق إلا كدساً من الملابس المهترئة في الخزانة، بالإضافة الى مشط ومقص في ادراج المنضدة.

وضعت القداحة قرب المرآة ورمت نفسها على السرير، وتفاقم في داخلها مزيج من الخوف واليأس. كل شيء كان مسدوداً، قاتماً، غامضاً. قامت وألصقت أذنها بالباب للإصغاء. لقد ران الصمت المطبق في انحاء المنزل. «لعله قد هرب... لكن يجب الانتظار لفترة كافية.»

التفتت هند فشخصت امام بصرها المرآة التي انتصبت فوق المنضدة. كانت بيضوية الشكل وطويلة، على غير عادة مرايا زينة الوجه. احتضنها اطار برونزي مزخرف، اضمحل لونه في معظم اطرافه واستحال الى لون داكن، اندمج بتدرج طفيف مع محيطه المعتم. تقدمت نحوها حتى بانت اليها صورة قوامها الرشيق بالكامل. لفت نظرها شق، امتد من الحافة العليا للمرآة الى اسفل حافتها الجانبية، خالقاً صورتين متجاورتين لها. في الصورة اليمنى، كان الوجه مشوهاً بسبب الشق، وسطع ضوء المصباح في وسط ظلام تام. حدقت هند فيها لوهلة فبدأت ملامحها بالاسوداد والاختفاء شيئاً فشيئاً، كأنها تتراجع وتغرق في بحر غياهب لا نهاية له. آخر ما تبقى منها كان عينيها الساكنتين، اللاتي نصع بياضهن قبل أن يتلاشى. أجفلت متراجعة ونظرت للصورة الأخرى، لتشهد ظهور خيال مظلم خلفها. كان ملتفاً بالسواد ولم يظهر منه الا عينين حمراوين، وبلحظة شد رأسها الى الخلف، ولمع نصل سكين كبيرة قطعت رقبتها، فانبثقت الدماء كالينبوع الجاري وسط شهقاتها المختنقة. امسكت هند رقبتها مرتاعة، ثم ناضلت لرفع بصرها، لترى نفسها واقفة امام المرآة، ولا وجود لأحد خلفها. شهقت شهقة أخيرة بعمق وتمتمت:

«هذا ليس الوقت المناسب للتخيلات...»

استدارت لتتطلع في ارجاء الغرفة. كان خيط من سائل احمر قانٍ قد بدأ بالجريان من تحت السرير ببطء شديد. روعها المنظر وتقهقرت نحو الباب. عادت عبارات تلك الخطبة القديمة لترن في رأسها.

«ذلك الذي يحيا دون مخاطرة، لم يبلغ إدراكه معنى الدنيا بعد. إنما خُلِق الإنسان كما هو، لُيخاطـر.»

«سأخرج من هنا... وليحصل ما يحصل!»

فتحت هند الباب بحذر ومدت رأسها الى الخارج، متفحصة الرواق على ضوء المصباح. لم تكن ثمة علامة للذئب. مشت الى الدرج وبدأت بالنزول. كانت قد وجهت ضوء المصباح للخلف لكي لا تنكشف من بعيد. انتهت درجات السلم ولم يحصل شيء. تنفست قليلاً وكانت ستتوجه الى الصالة للخروج، بيد أن صوت محرك سيارة مقتربة في الخارج أوقف خطواتها.

هرعت للنظر عبر الشباك، حيث كانت أضواء السيارة على مسافة قصيرة من البيت. أخفضت رأسها وانعكس الضوء داخل جدران المنزل والتف حوله، وبدا أن العجلة قد توقفت قرب باب خلفية للمنزل. سمعت صوت مزدوج لإغلاق أبواب السيارة اعقبه همهمة أصوات بشرية. اسرعت هند بالخروج من باب الصالة الأمامي، ودارت حول البيت لتجد امامها سيارة حمل تويوتا بيضاء، وضعت في اعلاها راية سوداء. كان جزؤها الخلفي ممتلئاً الى النصف، بأكداس مغطاة بقماش

طويل متلفلف. صعدت هند بتأنٍ ورفعت طرفاً من القماش، لتفوح رائحة لا تطاق. ظهرت عدة أشلاء جثث تحت الغطاء، كانت قد بدأت اوصالها بالتحلل. أسدلت القماش بينما تناهت الى سمعها أصوات الرجال من الداخل.

- «لا يوجد شيء هنا... لنعد الآن.»

- «وهو كذلك.»

لقد اقتربت الأصوات، ودنت الى درجة استحال معها الهرب دون لفت الانتباه. فكرت هند ثم وثبت، وغاصت بين اكوام الجثث وبدن السيارة وغطت نفسها. صعد الرجلان في السيارة، التي بدأت بالتحرك بعد قليل.

- «لم نحصل على غنائم كافية اليوم...»

- «على الأقل لدينا بعض الصيد، الذي سيخفف من توبيخ الوالي يا أخي!»

في تلك الأثناء كانت الأفكار تتلاحق في رأس هند، بينما كانت تقبع هناك قرب عدة جثث ملقاة كالنفايات. نظرت الى أقرب جسد إليها. كان لرجل أشيب انطمست قسمات وجهه، اتكأ على جنبه ومرفقه، وبانت من تحت ابطه كف صغيرة. أزاحت جثمانه جانباً لرؤية باقي اليد. تعالت دقات قلبها وبدأ رأسها في الدوار. انكشفت الذراع اليافعة لها، وأحست بغصة في حلقها، لكنها تابعت إزاحة جثة العجوز، حتى اتضح الوجه الصغير وراءها.

«سـعــد!»

صرخت بلا وعي واشتد الدوار، وأحست بثقل كبير في دماغها. شعرت كأن لحظات قليلة مرت قبل أن يسطع بوجهها ضوء، شوش بصرها بالكامل.

- «لدينا هدية هنا!» هتف صوت خشن بنبرة جذل صبيانية.

- «لا وقت للمتعة الآن... علينا تصفيتها.»

سمعت هند صوت سحب اقسام بندقية، وصرخت بوهن، قبل أن يتحول كـل شيء الى ظــلام.

- ١٠ -

إنه صباح السبت، دخل ابو صالح يتمشى امام الشاب الأشقر متوسط البنية، الذي غطى رأسه بعِصابة سوداء شبيهة بعصابة المغامرين، بينما كان يطيل تفحص المكان وموجوداته.

- «تفضل يا مصعب... ما هي كنيتك؟»

- «لم تثبت لي كنية الى الآن... لكنني سأختار قريباً.»

كانت كلمات مصعب عربية فصحى تشوبها لكنة اهل المغرب العربي، قالها وهو يخطو داخل غرفة الجلوس.

- «انتما اثنان هنا فقط يا ابا صالح، اليس كذلك؟»

- «نعم، لقد تم نقل ثالثنا الى فرقة اخرى هذا الفجر. ابو غالب لا يزال نائماً كما ترى. كم يحب النوم ذلك الرجل! انه ثقيل الوزن وثقيل النوم ايضاً.»

- «اها... هل ستصنع شاياً الآن؟ لقد قاربت الثامنة..»

- «بالتأكيد. استرح فأنت ضيف اليوم.»

اتجه ابو صالح نحو المطبخ والتقط الإبريق النحاسي العتيق، الذي كان نصفه الأسفل اسوداً تماماً بفعل السخام. وضع فيه بعض الماء والشاي المجفف، ووضعه على النار، وعاد ليتحدث مع ضيفه، الذي خلع عصابته ووضعها على الطاولة.

- «إذن متى كان تاريخ انضمامك يا مصعب؟ وكيف تجد الوضع؟»

- «انا جديد نوعاً ما. بعد اتمامي للدورتين، الشرعية والعسكرية، في مقر للدولة في تونس قرب مدينتي الأم، انت تعلم، قضيت ثلاثة اشهر في الشام في ولاية الرقة. كان الوضع شبه مستقر هناك تحت قيادة الخليفة، وكل شيء في متناول اليد. ثم جاءت القرارات بتوزيعنا انا وفرقتي ممن جاؤوا معي من مهاجري تونس على شمال ووسط العراق، في واجبات خفيفة نسبياً. يهدف ذلك الى دفعنا لإكتشاف مهاراتنا الكامنة في الميدان، ان جاز التعبير. هل لديك فكرة عن المهمة القادمة الآن؟»

- «ليس بعد... سيصلنا بلاغ اليوم بتفاصيلها من الشيخ، الا انه من المتوقع ان تكون يسيرة، كما قلت.»

- «ندعو من الله الشهادة، او النصر ان اذن لنا به.»

- «ان شاء الله... تبدو في مستهل شبابك يا مصعب.»

- «نعم. لقد اتممت عامي العشرين الأسبوع الماضي!»

قالها بنبرة جذل واضحة، سرعان ما خفتت، بعد ان رمقه ابو صالح بنظرة استفهام.

- «لقد اعتادت امي ان تعمل لي احتفالاً كل سنة بعيد مولدي، انت تعلم. كنت في كل مرة اطلب منها سيارة، وكانت تقول ربما ستحصل عليها عند بلوغك العشرين. هه... ذكرتها بهذا الأمر في آخر اتصال بيننا، وقالت انها ستفكر بالموضوع اذا عدت منتصراً. هذا امر مستبعد للغاية، لكنها لا تعلم ان الجهاد حياة والشهادة جنة.»

هز ابو صالح رأسه وذهب لجلب الشاي، بينما دخل ابو غالب الى الغرفة بشعره الأشعث وقد ضاقت حدقتا عينيه، كأنهما تناضلان لإستبيان الأشياء من حولهما.

- «السلام عليك يا أخ... مصعب... اليس كذلك؟»

- «عليكم السلام ورحمة الله وبركاته...!»

جرى التعارف بينهما، ثم حوار قصير، وبعد نصف ساعة كان الثلاثة جالسين يتناولون الإفطار على الأرض.

- «إذن تقول ان ابا قتيبة غادر هكذا؟»

- «نعم، لقد جاءت توجيهات الشيخ بذلك بصورة مفاجئة وعاجلة قبل الفجر، وجاءت عجلة لنقله. يبدو ان مهمتنا لن تستدعي وجوده معنا، وها هو الزميل مصعب معنا بديلاً عنه.»

- «بلى... يقدر الله فيها الخير. سنلتقي به في المعسكر.»

نظر اليه ابو صالح من زاوية عينه وهو يزدرد قطعة الزبد الملفوفة بالخبز من يده. لا احد يعلم ان جثة ابي قتيبة ترقد تحت التراب، بجانب السياج الخلفي للمنزل. تستطيع التخلص من اي كائن سراً في هذه البساتين دون مجهود كبير، مادامت التربة متوفرة.

انقضت ساعات الضحى بسرعة، ولم تأت التعليمات بخصوص المهمة الأخيرة. تعامدت الشمس على البيت وارتفعت الحرارة تحت وهجها الى حد كبير. في الداخل كان ابو غالب يقوم بالصلاة، في حين استلقى ابو صالح ومصعب متقابلين في غرفة الاستراحة الباردة بفضل جهاز

التكييف، الذي كان يعمل بأقصى طاقته. تطلع مصعب برفيقه لدقيقة، ونفخ دخان سيجارته قرب منفذ سحب الهواء الموجود اعلى المكيف، قبل ان يتحدث:

- «لم تخبرني عنك يا ابا صالح. اراك محارباً شديد البأس، لا ريب ان قصتك ملهمة.»

اطرق ابو صالح قليلاً، كمن يلقي نظرة تقييمية شاملة على لوحة او عمل فني، رمشت عيناه عدة مرات قبل ان يرد عليه:

- «ليست لدي قصة ممكن ان تلهم احداً. لقد ظلمني الزمن، إلا إنني عشت في النهاية.»

- «وهنا تكمن العبرة يا رجل! اي انك قاومت اليأس ولم تستسلم، ووجد الإيمان طريقه الى قلبك. ليس بمقدور كل شخص فعل ذلك.»

قطب جبين ابي صالح وهو يستمع للكلام. احس ان فيه مبالغة وقدراً زائداً من التفاؤل، وشعر بشيء من الشفقة الغامضة تجاه الشاب.

- «حسناً... سأروي لك ما يمكن روايته، وباختصار بالغ. كانت طفولتي في بيت فقير فيه نصف دزينة من الاطفال ومعيل واحد فقط، وهو ابي الذي كان يملك دكانا لبيع الأقمشة في سوق محلي. اضطررت لإعالة نفسي قبل بلوغي، وبالطبع لم اجد الفرصة للدراسة. تزوجت لاحقاً بأرملة اسمها نجاة، لم تكن ميسورة الحال هي الأخرى. تستطيع القول ان ذلك تم لتجنب مشاكل كانت وشيكة الوقوع. عشنا معا لفترة، ثم وافاها الأجل رغم صغر سنها، وحدثت خلافات في العائلة. عانيت

بعدها من معضلات نفسية، الا ان وضعي استقر بعد تعرفي على شيخ جليل، التقيته في احد المساجد عندما دخلتها بالصدفة. كان لأسلوبه المتفهم وسعة قلبه وطول صبره الدور الكبير في بث الأمان في روحي المريضة. لقد دفعني لإيجاد ذاتي الحقيقية وكسر قيود التفكير الدنيوي الواطئ، والتحقت بواسطته فيما بعد بالتنظيم وصرت قناصاً ماهراً. وها هي القصة كما كانت.»

- «هذا جميل. بارك الله فيك.»

حدق ابو صالح في السقف اثناء السرد. تراءى له وجه نجاة الشابة، الذي كاد ان يضمحل من ذاكرته بعد سنين الفراق. احس بحنين خفي وخيبة خفية في ثنايا نفسه، ازعجه واقلق راحته. وفجأة رأى نجاة العجوز الميتة معلقة من السقف وهي تنظر اليه بعينين، جحظ بياضها حتى كادت ان تسقط من محجريها. اجفل وانتفض وقام باتجاه الباب.

- «يا الله! ماذا حدث يا ابا صالح؟»

توقف عند الباب مستدركاً نفسه، ثم هز رأسه واجاب:

- «لا شيء... سأذهب للمرحاض.»

فتح الحنفية فانبعث منها ماء متقطع بلل به وجهه. شعر برغبة عارمة في رؤية وجهه تلك اللحظة، الا ان عدم وجود مرآة أخمدها بسرعة. خرج الى غرفة الجلوس، وكاد ان يخطف سيجارة من علبة سكائر مصعب ليدخنها، الا انه امسك بزمام نفسه الجامحة في النهاية. لقد اصابه توتر من الأجواء، ومن تأخر مكالمة الشيخ. شعر بالصمت يرنو

ثقيلاً على مسمعه، فشغل التلفاز وجلس يقلب بعجل بين الفضائيات، بينما اعتملت الافكار في رأسه.

«ماذا يجري يا ابا صالح؟ انتَ كالطود الشامخ، لم ولن تهزك رياح الظروف. لقد مات قلبك منذ سنين، مات وتجمد وصار جداراً كونكريتياً، تتكسر عنده كل أمواج القدر وما يهيئه للمساس بك. ستستمر وتمضي قدماً. ها قد قمت بتصفية ابي قتيبة بكل سهولة، وستصفي كل ما يواجهك بنفس الطريقة.»

هدأ باله قليلاً بعد مناجاته الذاتية، وهو الأسلوب الذي كان يكرره كلما اقض مضجعه امر. انتهت قائمة القنوات وعاد التسلسل من البداية، حيث تم حذف معظم الفضائيات التابعة لجهات مناوئة للتنظيم، بالإضافة الى الترفيهية منها والغنائية، ولم تبق الا الداعمة لهم منها وبعض الفضائيات العالمية لغرض الإطلاع على الأخبار. نهض لتقليل قوة دفع التكييف بعد احساسه بلسعة برودة، وعاد للجلوس قبل ان يرن جواله باتصال من المقر المركزي.

بعد عدة دقائق كان يتحدث مع الشيخ على الخط، في حين حضر مصعب قربه وعلى وجهه علامات اللهفة. لم تستغرق المكالمة طويلاً كونها لم تتضمن الا ملخصاً عن المهمة، اما باقي التفاصيل فسوف تكون عبر محادثة صوتية على الانترنت عند المساء.

- «ابشر يا رجل!»

- «سأكون انا المكلف بالمهمة، وسوف ترافقاني انت وابو غالب لتأمين

المكان يا مصعب. ان لم تواجهنا معرقلات جانبية فالتكليف هين.»

- «ممتاز. الحمد لله، سأخبر رفيقنا.»

قال ذلك وعاد للإستراحة، في حين ظل ابو صالح جالساً امام التلفاز. لقد اثنى عليه الشيخ مجدداً لقيامه بتصفية ابي قتيبة وحسب ما تطوع للقيام به، حيث تم ابلاغه برصد اتصالات مشبوهة قام بها ابو قتيبة، مع تغير سلوكه في الفترة الأخيرة. وعندما جرى اكتشاف تحويل مبلغ مالي من شخص ذي ولاء معاد الى حسابه الشخصي في البنك، لم يجد الشيخ خياراً الا اتخاذ قرار بتصفيته جسدياً حالما تنتفي الحاجة له في هذه البعثة. تطوع ابو صالح بالقيام بذلك وتعهد ان يكون الامر سراً دفيناً وان يجري كل شيء بنظافة تامة، كما دأبوا على قول ذلك، ولثقة الشيخ العالية به فقد منحه التخويل وسارت الامور بسلاسة.

«القائد الى جانبي، والشيخ سيزكيني عنده. لذلك سأطلب منه ترشيحي لرئاسة جماعة، حال ايابنا بالسلامة بحول الله.»

لم يلق ما يفصله عن العودة الظافرة عدا مهمة يوم غد، والتي لن تتعلق بمكان سوى مبنى ديوان المحافظة بذاته.

- ١١ -

فتحـت هند عينيها، وقفزت متلفتة وهي تلهث. اتضح المنظر حولها تدريجياً.

لقد كانت في الخيمة، حيث دخلت خيوط أشعة الشمس من خلال الفتحات الصغيرة في قماش الجدران.

«يا إلهي... كان ذلك رهيباً بالفعل...»

لم تكن الكوابيس المرعبة والمؤرقة بالشيء غير المألوف في حياتها، لكنها لم تتذكر أن أحداً منها كان بهذه الدرجة، من محاكاة الواقعية والتأثير عليها. كان الجو صافياً، مع وجود طبقة من الغبار غطت كل شيء مكشوف.

«كانت الليلة متربة... لهذا وجدته في المنام ايضاً!»

قامت هند وأعدت الفطور المقتضب، ثم أيقظت سعد. تناولا الطعام وأكمل الصغير تبديل ملابسه، وجلس ينتظر امه في اثناء فحصها للأغراض.

- «ماذا ننتظر يا امي؟»

نظرت امه الى الساعة. لم تبقَ الا دقيقة على الثامنة والنصف.

- «لننطلق يا سعد. كن مطيعاً، واحمل الحقيبة.»

خرجت هند بصحبته الى الشارع. سطعت الشمس في السماء، ولم

تكن حركة السابلة والعجلات بالمزدحمة ذلك الأحد. خلت الأجواء من مخلفات عاصفة ليلة أمس، بعكس ما كان بمستوى الأرض، حيث طغى عليه الغبار. مر الأثنان بجوار كافتيريا زهير، الذي لم يرفع بصره عن وجه هند وجسمها، برغم أن تفاصيله اختبأت خلف ثيابها الواسعة. لم تبادله هي الا أول نظرة، واجتازت موضعه على عجل. كانت قد وصلت للتو الى محطة توقف الحافلات، عندما ناداها صوت طفل.

- «أم سعد!»

التفتت اليه، كان طفلاً من ابناء المنطقة القريبة. شعرت أن وجهه مألوف، وحملت يده كيساً أسوداً صغيراً.

- «هذا من زهير، وهو يبلغك تحياته.»

أخذته منه بلا تعليق، ثم أمرته بالإنصراف. قفز سعد متسائلاً:

- «ماذا في الكيس ماما؟ افتحيه!»

- «فيما بعد، سعد. جاءت الحافلة، تحضر للركوب.»

وماذا يمكنها أن تكشف لسعد من هذا الكيس، المقدم من رجل انضم مؤخراً الى قائمة المفتونين بها. جلس سعد بجانب والدته في الحافلة المتجهة لقلب المدينة. كانت رحلات كهذه تملؤه بغبطة وحماس، برغم بساطتها، كونها تخرجه من روتين اللعب اليومي مع نفس الأطفال في مخيمهم، بالإضافة الى اعمال تدبير العيش المختلفة التي عملها، ومساعدة امه في اشغالها. طافَ بنظره حتى استقر على مقعدين للركاب امامه من بعد، كان يشغلهما طفل يلعب مع والده. رمقهما سعد بنظرة

متعاطفة لا تخلو من الحسد. لم يكن يؤثر فيه شيء، اكثر من رؤية والد يسبغ حنانا على ابنه. مضت لحظات، ثم اشاح بعينيه بعيداً نحو الطريق مع بدء حركة السيارة. لقد تعود على حياة مبنية على العوز وعدم الأمان، حتى باتت الطمأنينة شيئاً بلا معنى بالنسبة له.

أما هند فقد اتكأت على حافة النافذة متأملة الشارع، ومرت ببالها ذكريات لم تتمكن الصدمات من محوها، احداث شكلت معالم ماضيها المشوش الذي كاد ينقرض، وامتزجت بوجدانها وأضحت معها كائناً واحداً لا يتجزأ. انطلقت الذكريات، وتبلورت وتجسدت، كمشاهد لفيلم سينمائي، كانت في يوم من الأيام أحد أبطاله.

اول المشاهد كان في مساء خريفي قبل ثمانية سنوات. كانت هند المراهقة ذات السبعة عشر حولاً في بيت أهلها الريفي، تكنس الأرض بمكنسة الخوص اليدوية.

- «هـنـد؟ أيـن أمكِ؟»

أتى السؤال من رجل ضخم البنية أجش الصوت، كث الشاربين، يرتدي جلباباً عريضاً وغترة بيضاء، وقف على مقربة خلفها. كان يدعى رزاق، الرجل الذي تزوج أمها بعد استشهاد والدها في مطلع الحرب العراقية الإيرانية، عندما شرعت بخطو أولى خطواتها. نشأ والدها المتوفي في عائلة سكنت مدينة على الحدود مع الشام، ولم تتسن لها فرصة للقاء اقربائه الا لمرات معدودة. أما والدتها فكانت لها أخت واحدة فقط، عاشت مع الجدة العجوز، وكانتا على خلاف قديم مزمن معها، تفاقم

بالأخص بعد زواجها برزاق. وبعد عمر مع هذا الأخير، لم تشعر هند يوماً نحوه بأبوة.

- «أمي ذهبت الى جدتي... لقد أخبرتكَ صباحاً إنها مريضة.»

- «نعم، كأنها لم تكن مريضة في يوم من الأيام!»

رمقته هند بنظرة اشمئزاز، واستأنفت التنظيف دون ان تقوم من انحنائها. كان رزاق دائم التذمر والإنتقاد لكل شيء، غليظ الأسلوب وفظاً. بالرغم من تظاهره بالتدين امام اغلب ضيوفه، الا انه كان يعاقر الخمر بإفراط كلما سنحت له الأجواء. زاد ذلك من تعاسة عائلته، ولم تخلُ مشاجراته مع أمها من استعماله للشتم اللاذع، ثم الضرب في اغلب الأحيان. هي تفهم الآن انه ربما قام بذلك كرد فعل لإهانات من حوله واستصغارهم المستمر له، لأنه لم يكن ذا منزلة او وزن بين اصدقائه، ولا حتى جيرانه، بل المكروه المحتقر على الدوام. شعرت به وهو يقترب منها حتى لامسها من الخلف، ومرت يده على شعرها الذهبي، الملفوف بعقدة خلف رأسها.

- «لماذا لا تطلقين هذا الجميل؟»

لان صوته وزادت عذوبته في تلك الجملة، فنهضت ونظرت اليه بحدة.

- «أنا اعمل...»

مشت وعبرت من جانبه، لكنه أمسك بمرفقها وجذبها إليه.

- «تعالي... لقد كبرتِ وتغيرتِ كثيراً هذه السنة.»

أفلتت هند يدها منه وأسرعت مبتعدة بخوف. كان رزاق يقول لها

كلاماً معسولاً في أحيان، ويلمسها لمسة غريبة في أحيان أكثر. لم تدرك مبتغاه ومراده من تلك التصرفات، بحكم كونه بعمر أبيها. في تلك الليلة باتت أمها عند جدتها العليلة، ولم يكن في البيت سواها وزوج أمها. بعد منتصف الليل بقليل استلقت هند في غرفتها على الفراش، موشكة على النوم، بيد أن بضعة طرقات على الباب عرقلت ذلك.

- «مَـن؟»

- «ومن غيري يا هند!»

جاء رد رزاق ببعض الغضب. قامت ووصلت قرب الباب.

- «ماذا تريـد؟»

- «أريد أن أقول لكِ شيئاً بخصوص أمكِ... افتحي.»

نظرت اليه من ثقب خفي في الباب لم يعلم بوجوده غيرها. بدت ملامحه جادة، والأهم من ذلك، خالية من علامات السُـكر. فتحت مزلاج الباب الصغير بحذر، فدفعها ودخل.

- «افتحي الباب يا ملعونة...»

- «ما بها أمي؟»

اوصد رزاق الباب من الداخل واقفلها. أخذت اوصال هند بالإرتعاد وهي تحدق نحوه.

- «مـاذا تريـد؟ تكلّـم!»

انطلق نحوها وأمسك بكلتا يديها.

- «أغمضي عينيكِ لدقائـق فحسـب...»

قال ذلك وبدأ برفع طرف رداءه الطويل بإحدى يديه. ثارت هند وأفلتت منه وانسلت تحت السرير بلحظة واحدة، لكنه استطاع احكام قبضته على احد كاحليها.

- «اقول لك اهدئي... فقط اهدئي ولن أحتاج أكثـر من دقائق...»

صاح بها وسحبها من الأسفل، لتظهر له شاهرةً سكيناً بيديها الأثنتين، كانت تخبئها تحسباً لأي طارئ.

- «سأغـرس هذه في بطنـكَ حالاً إن لم تبتعـد!»

تراجع رزاق خطوة، فنهضت مستمرة بتلويح السكين باتجاهه.

- «اخرج الآن... وإلا فإنني أقسم بالله إن دماءك ستغطي أرض الغرفة...»

كشرت عن اسنانها، وقامت بخدش ظهر كفها الأيسر بنصل السكين بحركة سريعة مفاجئة، مسيلة خيط رفيع من الدم القاني، بينما كانت تزمّ شفتيها بألم. ثبتت السكين في يدها كالوتد، بينما طفحت عيناها بالحقد والكراهية.

- «سيجري دمك كهذا، هل ترى؟ اخرج الآن، حالاً!»

شعر رزاق انها جادة في كل كلمة تقولها، وتراجع للوراء رافعاً كفيه.

- «ستندمين يا حلوة... أعدكِ بأنكِ ستندمين.»

فتح الباب وغادر، قبل أن تغلقها هند بالمزلاج، وتجثو على الأرض باكية.

- ١٢ -

- «نعم، مثلما أقول لك. الكتابة تنص على ان حامل هذه البطاقة مدعو الى اجتماع المحافظ مع النازحين، في مبنى المحافظة صباح يوم الأحد، غداً!»

كان عبود بحالة ترقب شديد في اثناء كلام الشابة التي لا يعرف شكلها، الا ان ذكر كلمة النازحين افرغ كل ما حمله من اهتياج.

- «كتبوا النازحين؟ اقصد... للنازحين فقط؟»

- «نعم، لقد سمعنا أن المحافظ يعمل على تخصيص مجمعات سكنية جديدة لهم. على الأغلب ان هذا الإجتماع يدور حول الأمر، ويمكنك ان تستغل البطاقة لتسجيل عائلتك. هناك فرصة جيدة للحصول على سكن لائق يا عبد الله.»

سكت عبود قليلاً وقال بعفوية:

- «لكننا لسنا نازحين...»

- «اراهن ان احداً لن يتمكن من معرفة ذلك، اذا أخذت عائلتك وتوجهتم الى الإجتماع، بصحبة هذه البطاقة!»

كانت الفتاة بادية الحماسة، واتخذت عباراتها طابع البشرى السارة. لكن عبود ظل مطرقاً، يفكر فيما يمكن ان يفعله بالدعوة، نظرا لعدم وجود عائلة له.

- «انه امر يستحق المحاولة. اذهب وبلغ اهلك، هيا.»

شكرها الصبي كثيراً، وحمل المغلف وانصرف عن باب البيت. طفق يمشي في الزقاق، وهو خافض رأسه. لم يجد طريقة لاستغلال البطاقة، افضل من أن يبيعها الى أسرة من المهجرين، بثمن محترم. اما المعضلة كانت كيفية ايجاد مهجر يقتنع بدفع ذلك المبلغ.

استمر بالمشي حتى غادر حدود الحي، وواجه الشارع، الذي زخر بالسيارات عند وقت انتهاء الدوام الرسمي في المؤسسات الحكومية، وهو الثالثة ظهراً. داهمت أنفه رائحة كباب مشوي، دافعة عينيه الى تقصي منبعها. كان محل قصابة مع ملحق جانبي، يقدم انواع اللحوم المشوية، بعد طهوها على فحم منقلة قديمة ينفخ في جمرها المتوهج محرك هواء صغير.

اتخذ عبود مكاناً بعيداً عن الشارع، ليُخرج ما جناه حتى تلك الساعة من النهار. عدّ نقوده ورقةً ورقة، وهي تنثر على اصابعه فتات اطرافها المستهلكة، بينما كان يتحقق من عدم ملاحظة أحد له. بدت له وجوه المارة بهيئة متماثلة، كأنهم دمى لعينة. إذا لمحه أي منهم فسوف يقول ان هذا الوغد ليس فقيراً. في هذه المدينة، كل من يحمل رزمة مال ويخرجها للناظرين يُعتبَر، على اقل تقدير، ذو دخل متوسط. لم يكن الفقر المادي مستشرياً الى درجةٍ عظيمة، لكن الفقر الأخلاقي طغى طغياناً تاماً على البشر، الا القلة القليلة. هي من مخلفات الحروب، وتفشي فساد النفوس والجشع الذين جعلوا من ألسنة الناس فؤوساً،

لا ترحم أهدافها. أما تفكيرهم وانطباعاتهم عن الغير فكانت في معظم الحالات سيئة الظن، وعادة ما تصل الى مرحلة تأليف الأقاصيص عن الآخرين من دون اساس من الحقيقة، اقاصيص تكون دوماً عامرة بالخداع والتآمر والكذب. لا يشعر أحد أن ذلك خطأ، بسبب انتشاره وتحوله الى جزء من مظاهر الحياة اليومية، كما هو حال تدخين التبغ، وتعاطي الأركيلة بدخان ممزوج بأبخرة الحبوب المسكنة، في بعض مقاهي الشباب العامة.

اكمل الصبي غداءه، المكون من زوج من أشياش الكباب، والذي قرر تناوله بعد أن قام القصاب بتخفيض السعر له، بداعي الشفقة. قام وبلل يديه تحت حنفية ماء منفردة خلف المحل، لغسل طبقة من الدهن المتصلب بدأت تتشكل على اطراف انامله. هناك خطرت له الفكرة المطلوبة، إثر سماعه لحديث قصير بين رجلين على مقربة منه. «شارع المجمعات الطبية... جميل!»

ذلك الشارع المكتظ بمراجعي الأطباء في كل الأوقات، كان عبود يرتاده للتسول في أحيان متباعدة. لم يكن وارده يستحق العناء، فقد رافق ازدحام الناس ازدحام السائلين، الذين حجز قسم كبير منهم اماكن خاصة للعمل منذ اعوام، كان يتم بيعها وشراؤها، بل وتؤجر كالمحلات التجارية. لكن غايته اليوم مختلفة. سيجد فيه كل أصناف النازحين، الفقير والمتمكن مادياً، ولن يطول البحث عن مُشترٍ جيد لبطاقة الدعوة هناك. سوف يقبع قرب احدى تلك العمارات المشغولة بحركة المرضى

ومرافقيهم، وسيمارس طقوس عمله المعتادة، وعند مرور أحد من المهجرين، سيقوم بمناداته، وعرض بطاقة الدعوة لقاء ثمن. ربما سيتخلى المشتري عن كشف طبيب او أجر فحوصات مختبرية، لكنه سيحرز فرصة كسب سقف وجدران امينة، تحجب شمس الصيف الجهنمية عن اطفاله.

«نعم... الأطباء والمختبرات مكب للأموال... من المحتم انهم سيدفعون أكثر مقابل هذه، في ذلك المكان.»

هكذا فكر عبود، واقتنع بفكرته. قام برسم خارطة في باله، للمسار المؤدي الى نقطة تقف فيها الباصات، التي تقصد الجسر المقابل لشارع الأطباء. عاود المشي في الطرقات ثانية. يجب أن لا يضيع المزيد من الوقت، فقد ضاع بما فيه الكفاية بالنسبة له. سار بخفة الهررة، معينة اياه على ذلك نحافته البالغة وعدم وجود احمال على عاتقه. على عكس بعض المتسولين، فإن عبود كان يمقت حمل شوال او كيس معه. لم ير له اي غرض عملي، حيث إن تجميع علب المشروبات الفارغة له يوم مخصص عنده، وهو يوم الأحد. أما جمعها عشوائياً فاعتبره مضيعة لوقت، يمكن أن يستغله في اماكن افضل، او للتمتع بقيلولة.

دام الطريق اكثر من ربع ساعة من السير في أزقة وفروع سكنية ضيقة، بالكاد تتسع لمرور سيارة واحدة. تعرجت الأرض فيها، وملأتها مجاميع من التلاميذ والطلبة العائدين من المدارس او الذاهبين اليها، الذين فشلت معهم محاولات عبود في استحصال شيء من الفكة. كان

الصغار يمعنون النظر في عينه المتضررة، ثم ينعتونه بالمسخ او المعتوه، اما الجبناء منهم فكانوا يفرون من امام وجهه، كمن رأى شيطاناً. أنهى تلك الدروب، التي شكلت طريقاً مختصراً أوصله الى مقام ديني كبير في وسط المدينة، تقف قربه ناقلات الركاب المنشودة.

مر عبود بالقرب من سياج المقام وبابه الجانبي الصغير، فتوقف ورفع نظره الى قبته الزرقاء التي جاورت منارة كبيرة ذات لونين، أصفر فاتح وسماوي فاقع، شيدت على الطراز الإسلامي المعروف. فكر ان هذا المكان يغيب عن ذهنه، على الدوام، ولا بد أن يرتاده في موسم الزيارة القادمة. لاحت له من بعيد زمرة نساء ملتفّات بعباءاتهن، تلتهن ثلة من البنات والصبية، هرولوا خلفهن وهم يتدافعون ويتبادلون الضحكات. امتعض عبود من المنظر وأدار رأسه الى مساحة من الأرض توسطت البيوت المتراصفة، نمت فيها نباتات برية، وأدغال شقت طريقها للحياة ببساطة، من بين الرمال الجافة وحرارة الجو اللاذعة.

هبت ريح مفاجئة في الأنحاء، مثيرة أتربة راكدة، وطارت بفعلها اغلفة حلوى فارغة حتى لامست وجهه. أخذ يلعن الجو بضجر، قبل أن يلاحظ تكون دوامة ترابية مخروطية في عراء مقابل ساحة الأدغال. حدق عبود فيها بتركيز. كانت تدور كأنها اعصار مصغر، في صحراء نائية. راقبها وهي تدور في حلقات حول بقعة، ثم تنساب وتجري بسلاسة باتجاه الشارع، ثم تتلاشى تدريجياً. مع خمود الهواء، قفزت في رأسه مهمة اوشك أن ينساها.

«الدعاء... لأم غازي المريضة... أم ذلك الرجل الذي كان يصلي في الجامع...»

تجمد عبود بعد أن مشى لأمتار معدودات، واضطرم في داخله صراع. شعر كأن أحداً يسحبه من يديه، ويجره لدخول المزار وتنفيذ وعده للرجل المنكوب بإعتلال والدته، بينما كان عقله، على سجيته، يدفعه لإهمال الأمر والتوجه لهدفه على وجه السرعة. خطى بضع خطوات للأمام، مقاوما تلك القوة المجهولة، قبل ان يثبت في مكانه، ويحاور نفسه:

«القضية تتطلب عشر دقائق فقط، ربما ربع ساعة. لن اتفوه بأكثر من جمل قليلة...»

أحس بوجود كائن غير مرئي في داخله، كان يتجادل معه ويشوش طريق الشارع، الماثل امامه. استدار إياباً نحو الباب الجانبي للمقام، ودلف للداخل بعد تفتيش مقتضب. تكونت مقدمة المزار من ممر عريض، زينت حافاته صفوف من الشجيرات وأصص نباتات الزينة، التي لمعت اوراقها كأنها غُسِلت للتو. واجهته بعد عبور الممر خمس درجات صاعدة، ثم فسحة مبلطة بالمرمر الأبيض الناصع، قبل الدخول الى المصلى. وقف حارسان ضخما البنية على جانبي البوابة، ونهر احدهما عبود قبل اقترابه، بسبب هيئته الرثة البالية. بعد نقاش واستعطاف، سُمِح لعبود بالوقوف قرب البوابة، على مسافة من موضع المصلين.

نظر الى الآيات المنقوشة بشكل قطرات ماء متجاورة في جدار المقام

الداخلي، ثم أغمض عينيه ليسمح ببعض السكينة بأن تدب فيه. حرك شفتيه، وهو يتلو دعاءاً بسيطاً لصحة ام غازي العليلة. لم يتوقف الا بعد أن إقتنع بأنه عمل ما بوسعه، وإنه أوفى بقسمه للرجل. في طريق الخروج، بقي بصره ثابتاً على زهرة صفراء زاهية واسعة الوريقات، في وسط سندان اسطواني مفلطح. انعكس اصفرارها على الوان ما حولها، وجذب نحوها نحلة كانت تمتص الرحيق منها كالرضيع. همّ عبود لا ارادياً الى ضربها، غير انه تراجع في آخر لحظة، حين تراءى له وجه طفلة شقراء، أصغر منه، وقفت وحيدة على بعد خطوات، قرب ممر الدخول. كانت تبحث في أوجه الزائرين عن مساعدة، لكن اكثرهم كانوا يكتفون بالنظر والعبور بلا اكتراث. انتظر عبود قليلاً ليسمع كلماتها، التي جاءت لتؤكد ما تكهن به.

«هذه الطفلة مهاجرة...»

تقدم عبود اليها حتى صار خلف ظهرها تماماً، وقال قرب أذنها:

- «ما إسم الحلوة؟»

انتفضت البنت مجفلة، وزاد تشوه سحنته من خيفتها، إلا أن ذعرها لم يدم طويلاً، وتحولت نظرتها لتعكس إستياءاً نبع من عينين متراخيتين.

- «ابتعد... وما بالك بإسمي؟»

- «حسناً، انت من عائلة مهجرة، اليس كذلك؟»

- «بلى، كأن ذلك ليس واضحاً. تسول بعيداً عن موقعي، أرجوك.»

- «لم آت لأنافسكِ هنا. الآن اخبريني هل لديك سيولة جيدة؟ عندي

شيء سيغير حياتك وحياة اهلك.»

نظرت اليه باستياء أشد هذه المرة. كان مظهرها، بوجنتيها الجافتين المتشققتين وشعرها المنثور، وأكمام ثوبها التي تدلت من ذراعيها، أشبه بدمية قماشية كئيبة لم يعتنى بها.

- «يغير حياتنا؟ ما ذلك؟ المصباح السحري؟»

شرح عبود لها امر البطاقة والإجتماع بأبسط المفردات، بينما كانت تصغي اليه بكثير من الشك والريبة.

- «ولماذا لا تكون مجرد محتال آخر، يريد أن يخدعني؟»

- «بإمكانك التأكد من هذه الكتابة من اي شخص ثان...»

اطرقت البنت قليلا ثم قالت:

- «انظر... ليس معي مال. ظروفنا صعبة. انا اعيش مع امي وتوأم بعمر سنتين، في مكان بائس بعيد لا يصله اي من هؤلاء الناس. ابي فقدناه قبل ان نهاجر. لدي هذا فقط.»

أخرجت له من داخل ثوبها سواراً معدنياً، مزركشاً بورود ملونة. أمسكته بيد مرتجفة ثم اردفت:

- «هذا أهداه لي أبي في عيد مولدي السابع. كنت أتمنى أن أحتفظ به لسنين طويلة، لكني سأعطيك اياه إن كان المقابل، أن نعيش في بيتٍ، ثانية...»

بانت دمعة في مقلتيها، لم تلبث أن مسحتها بسرعة. حدق عبود في وجهها لبرهة، قبل أن يدير لها ظهره ويتحرك مبتعداً على عجل. كانت

تنادي خلفه.

- «ماذا قلتَ... يا فتى؟ هل تقايض؟»

لم يرد عليها. لقد أشفق عليها غاية الشفقة، وخشي إذا عاد أو تحدث اليها من جديد أن يلين ويقبل بالمقايضة، فيكون بذلك قد خسر مبلغاً ينتظره، في شارع الأطباء. غادر المقام، وسار حتى وصل لموقف الباصات. لم تبارح خياله صورة وهمية لوالده، رسمها في مخيلته منذ دهر. رأى وجه والده وهو ينظر إليه بعطف، وتخيل وجود هدية في جيبه، محفوظة بعد كل هذه الأعوام. جاء الباص وتوقف، وسأل عبود السائق عن وجهته للتأكد. كان سيضع قدمه ليصعد، قبل أن يتراجع بصمت، ويهرول عائدا الى المقام، تلحقه نظرات الركاب المتحيرة من تصرفه. هرول إلى البنت الشقراء، ورمى مغلف البطاقة عليها حال اقترابه منها. قالت بدهشة:

- «إذن قبلت العرض بعد تفكير...»

مدت كفها لإخراج السوار، الا انها لم تلقَ اثراً لعبود عندما رفعت عينيها، لأنه كان قد غادر المزار. مضى يمشي نحو مجمع تجاري ليس ببعيد، ذي صيت واسع، يأمل في الخروج منه برزق. انقضى زمن وجيز، ولم يكد أن يستقر في موضع له قرب واجهة المجمع، حتى سمع دوي إنفجار ضخم، قادم من جهة الجسر، ومركز المدينة.

- ١٣ -

- «انظري يا أمي... هذا مول جديد!»

مر امام هند بناء متعدد الطوابق ذو تصميم معاصر، امتلأت واجهته ببلاطات انيقة من المرمر باللونين الأبيض والأخضر الغامق، كان يحتل مساحة كبيرة تطل على الشارع الرئيسي.

- «اريد أن اصنع واحداً مثله يا أمي.»

- «عندما تكبر يا سعد...»

- «هل تعدينني بذلك؟»

نظرت اليه بتعجب، وسكتت للحظات قبل ان تجيب.

- «إن اجتهدت فستصبح مهندساً، وتصنع مثله...»

كانت تتمنى ذلك هي الأخرى. ربما سيمضي الزمن على عجل، كلحظات السعادة، وتتحقق الأحلام في يوم ما. أطرقت وعادت لذكرياتها الأليمة، حيث دامت معاناتها مع رزاق طيلة مدة عيشها في ذلك البيت. كان يغالي في مضايقاته لها بعد حادثة غرفة النوم، فإما أن يتلمسها بيده او جسمه عند كل فرصة، او أن يفتعل معها مشكلات، تنتهي احيانا بصفعها ومعاقبتها. أمست الحياة بوجوده كالجحيم، لكن الكارثة حلت عندما توفيت أمها بعد ذلك بعام، إثر نوبة قلبية مفاجئة في فجر أحد الأيام.

تضاعف عذابها الجسدي والنفسي، مع خلو الجو لزوج امها وغياب قريب لها سواه. إنجرفت ببطء نحو دوامة من اليأس الرهيب، لولا لقائها بإبـن عمهـا خـالـد، الذي وقعت في غرامه منذ بداية تعرفها به، عندما زارهم مع شقيقه جلال، معزين بوفاة والدتها. لم تكن بوقتها قد رأته منذ أن كان طفلاً، وها قد أصبح شاباً وسيماً قوي الإرادة لا يقف بوجهه شيء. اغرمـت بعزمه وثقته العالية بالنفس، والتي امدتها بالكثير من القوة لمواجهة متاعـب حياتها، وعلى رأسها رزاق. كان الأخير بالطبع رافضـاً لفكرة زواجها من خالد.

«خالد انسان غير سوي... ألا تنظرين الى وجهه يا هند؟ أكاد أقسم أنه منتمٍ لجماعة من الشواذ!»

كان ذلك رأي رزاق المتكرر على مسامع هند، ولم يعلم انه شخصياً الأكثر شذوذاً بالنسبة اليها. لقد علمت أن خالد ينتمي الى ميليشيا سرية من المقاتلين، يدعمها حزب معارض للحكومة المحلية، يقومون بتنفيذ عمليات تهدف الى نصرة الدين، والقضاء على الفساد المستشري في المجتمع، كما كان يروي لها عبر مكالمات هاتفية طويلة. اهتم بها خالد، وأصغى اليها وواساها عند ألمها. لم تخبره عن تصرفات رزاق الشاذة لخوفها من ردة فعله، إلا انها لم تخفِ عنه صفاته الكريهة الباقية وكرهها له. تطورت علاقتهما بعد أشهر قلائل، حتى وصلت لتلك الليلة من ليالي كانون الأول القارسة، والتي تجلّت امام ناظري هند بأدق التفاصيل.

كانت على أهبة الاستعداد تلك الليلة، ولم تبقَ إلا ساعة واحدة على الموعد. ألقت هند نظرة وداع على حاجيات البيت وأبوابه وجدرانه، التي بدت كئيبة جداً في تلك اللحظة.

«سينتهي هذا السجن، وسأتحرر وأطير، بلا رجعة.»

كان خالد قد أقنعها بالهروب معه، الى وجهة لم تعرفها. كان جل هدفها هو التخلص من رزاق وبيته، الذي غدا كالحمل الجاثم على أنفاسها، تزداد الوحشة فيه مع كل يوم يمر. لقد وقفت هناك تنتظر الساعة التاسعة، لتخرج وتتوجه صوب ركن الجدول الصغير الذي يمر بوسط حيهم السكني البسيط، حيث سيأتي خالد بسيارته الحديثة لأخذها الى غير عودة. نظرت الى صورة أمها المعلقة، وشعرت انها تبادلها النظر بإعجاب.

«يرحمك الله يا أمي... ليتكِ شهدتِ آخر يوم لي مع الوغد...»

عادت لتتفقد حزمة أغراضها وهاتفها المحمول، ثم اتجهت الى غرفة رزاق للتحقق من كونه نائماً، بعد أن وضعت له حبتين من عقار منوم في علبة اللبن الذي شربه قبل هنيهة. لم تكن الحبة الواحدة، التي اعتادت أن تدسها له عندما تنشد الخلاص من افعاله، لتضمن لها نومه في تلك الليلة المهمة. فتحت باب غرفته بهدوء وأصغت السمع. كان شخيره مرتفعاً وشبه منتظم. نظرت اليه باحتقار، ثم استدارت لتغلق الباب، قبل سماعها شهيقاً عالياً متكرراً، أشبه بصوت شهيق الغريق. فتحت الباب بسرعة ونظرت للسرير من جديد. كان رزاق يمسك صدره

بقبضة احدى يديه بينما تخبطت الثانية في الهواء. دخلت هند الغرفة وظلت عيناها ثابتتين بوجهه، في الوقت الذي تشابكت فيه الأفكار داخل رأسها.

«إن أنقذته فسوف يضيع المخطط برمته... اليوم هو موعد الرحيل... بداية حياتي الجديدة...»

استمر رزاق يعاني امامها، ثم رفع بصره نحوها، بعينين جاحظتين محتقنتين. عصفت المشاعر داخلها قبل أن تهتف:

- «أنتَ وحش عديم الرحمة... أنتَ تستحق هذا!»

اغرورقت عيناها بالدموع ثم هرعت خارجة، وتوقفت في باحة البيت لثوانٍ، كي تستوعب الوضع.

«الحمد لله... ربي ينتقم لي أخيراً.»

لم تعلم هنـد أن جرعة المنـوم الزائدة هي التي فاقمت لديه ذلك الإختناق. استجمعت قواها وحملت حاجياتها، وغادرت البيت تهرول كالمجنونة. مشت نحو الجدول، ووصلت سيارة خالد وهي تقل رجلين آخرين لم تعرفهما. ركبت هند، مرتعشة من البرد والتوتر.

- «تبدين بحالٍ يرثى لها يا هند... هل كل شيء على ما يرام؟»

- «نعم، بالتأكيد.»

- «حسناً، شدي هذه الخرقة على عينيكِ الآن.»

لقد طلب منها خالد مسبقاً إلتزام السرية التامة في كل ما يتعلق بجماعته وأماكن تواجدهم، وأخلصت هي في ذلك.

كانت تلك نقطة تحول في حياتها. تزوجها خالد وشاركته المعيشة، وحملت منه بعد شهر واحد فقط. غلب الاضطراب على عمل خالد، حيث كان يتأخر دائماً في العودة، ثم يخرج في اجتماعات غامضة التفاصيل بعد أنصاف الليالي. كل ما عرفته هند انه كان ضمن خلية استخبارية تابعة للميليشيا آنفة الذكر، وأن عمله يقتضي احياناً أن يغيروا مكان سكناهم، على نحو مباغت. كانت هند مطلقة الثقة به، حتى اليوم الذي جاء فيه بفتاة مراهقة معه الى المنزل، الأمر الذي فاجأها كلياً.

- «لم تخبرني بهذا يا خالد...»

- «اعتبريها هدية لكِ عزيزتي، انها فتاة مسكينة يتيمة الوالدين، وربما ستعينكِ في اشغال البيت.»

شعرت هند بعدم الارتياح. كانت الفتاة نحيلة ولم تبلغ سن الرشد بعد، مهترئة الملابس، وقفت هنالك باستكانة، مطأطأة الرأس.

- «ما اسمكِ يا صغيرة؟ وكم عمركِ؟»

- «ندى... وعمري خمسة عشر عاماً... أنا تحت أمركِ سيدتي.»

كان صوتها خافتاً كالهمس، بينما ارتعد جسدها كارتعاد فريسة سقطت لا محالة في براثن صيادها.

- «تعالي يا ندى... انتِ بحاجة للعناية.»

ندر كلام ندى وأتت كلماتها كقطرات حبيسة في حنجرتها. لم تعرف هند كيف فقدت والديها، ولا كيفية مجيئها مع خالد. كلما حاولت

التعمق في سؤالها كانت ندى تزداد صمتاً وانطواءاً. أما خالد فلم يزيد شيئا على انهم وجدوها منذ فترة، تائهة الطريق وفي حالة صدمة، بعد تعرض أهلها لهجوم من قبل جماعة ما، ولم يتبقَ سواها على قيد الحياة.

- «لقد أثرت فيّ يا هند... اصررتُ على ان نعتني بها هنا بأنفسنا، ولم تبدِ هي مانعاً.»

بالرغم من عدم اقتناع هند الكامل بكلامه، الا انها لم تجد خياراً سوى العناية بهذه البنت، الى ان تستقر نفسياً على الأقل. ذلك فضلاً عن وحدة هند لمعظم الوقت، فأعجبتها فكرة وجود رفيقة تؤنسها. مر يوم آخر، قبل أن تعود هند ذات صباح من السوق القريب، لتجد الفتاة مختفية. نادت عليها وبحثت، ولم تجدها. كانت تقفل الباب من الخارج عندما تترك البيت، حسب توصيات خالد واحتياطاته المعتادة، لذا فاحتمال هروبها كان غير وارد. مرت دقائق ثم سمعت وقع خطى من سلم السرداب. اتجهت نحوه قائلة:

- «ندى، هل كنتِ في الأسفل؟»

إلا انها تفاجأت بخالد امامها.

- «آه... لقد أتيت مبكراً اليوم!»

- «نعم. ماذا حضرتِ للغداء؟» كان كلامه متقطعاً.

- «ليس بعد.»

- «حسناً سآخذ حماماً واستلقي.»

- «ماذا عن السرداب، خالد؟»

سكت للحظات ثم قال «لقد وضعتُ فيه بعض الأمور الزائدة...»

قال ذلك ودلف الى الحمام. نظرت هند خلفه، انه لم يعلق بكلمة على اختفاء ندى. أحست بوجود أمر مكروه يجري حولها، واكتسحتها رغبة جياشة في فتح السرداب. انتظرت الى ان بدأ صوت تدفق المياه في الحمام وذهبت لفتحه، لكنه كان مقفلاً. احتفظ خالد بمفاتيح الأبواب في جيبه، الا ان هند أبقت ايضاً على نسخة خاصة منها، خلف سرير النوم. ركضت لجلبها، وانفتح باب السرداب على مصراعيه.

ساد الظلام في الداخل، فشغلت مصابيح النيون المعلقة. اول ما وثب امام ناظريها كان نهراً من الدماء الطازجة، يحبو على الأرض من بُعد. جسد ندى منكفئ على وجهه، والدم يحوط النحر والرأس. أطلقت هند صرخة، إلا انها كتمت بيد امتدت من الخلف غطت فمها.

- «لا تصرخي!» كان خالد يمسك بها «هند... هذه الفتاة مشركة بالله! لقد أمروني اليوم بقتلها. انها ترفض ديننا وتصر على الكفر. وجودها فساد على هذه الأرض!»

دارت هند مرتجفة وهي تنظر اليه بعينين دامعتين مرتعبتين.

- «لو لم أقتلها، لجاؤوا هم الى هنا وقتلوها يا هند... أقسم لكِ!»

- ١٤ -

عاد سعد يتململ في مقعده، بحكم ضيق صبره الفطري. نظر الى ساعة يد والدته وقال:

- «أمي... كم الساعة الآن؟»

لمحت أمه ساعة معصمها. لقد كانت متوقفة عن العمل.

- «لقد عادت تخطئ من جديد يا سعد.»

- «لماذا لا ترميها في النفايات وتشترين واحدة جديدة ماما؟»

تمعنت هند في اطارها المعدني المدور، المرصع بشذرات فضية. لقد تساقط عدد منها بمرور الزمن، وبانت أثار تآكل على قسم من اطراف هيكلها. قضت هذه الساعة خمسة أعوام عندها، ومن المحال أن تقوم بتغييرها، كونها كانت هدية من خالد في مطلع زواجهما. نظرت اليها، وشعرت انها تنظر الى قلبها المنهك من جور السنين وحيف الدهر، وعادت الذكريات تنساب ثانية.

كان مقتل ندى اشد صدمة تلقتها هند، برغم محاولات إقناع خالد لها بمسوغات فعلته الشنيعة. لم تتبادل معه الكلام لأسابيع بعدها، قضتها بمتابعة سلسلة محاضرات توجيهية عقائدية للنساء جلبها زوجها، كانت من بينها تلك الخطبة التي علقت في ذهنها. بعدها أخذ يحدثها يومياً عن اعمال التنظيم وأهدافه، حتى تبددت صدمتها منه تدريجياً، وحل

محلها اقتناع مبدئي بفكر الجماعة وافعالهم. تطورت الأمور مع الوقت، وصار خالد يشركها في بعض عمليات التنظيم، التي تستوجب استعمال امرأة، كمراقب بعيد عن الشبهات لمكان يراد تفجيره او تنفيذ هجوم عليه. انصاعت هند لتعليماتهم وأمست عضوة شبه فاعلة، بسبب تنامي ايمانها بمعتقداتهم. نتج ذلك الايمان عن تغلغلها مع التنظيم، بالإضافة الى احساسها بأن ما تفعله رسم لحياتها هدفاً وأكسبها معنى، وإن لم يكن بالهدف الذي طمحت اليه فعلاً. كرر خالد خلال العمل الكثير من الآيات القرآنية، متبوعة بأحاديث عن النبي، لم تعلم هند مدى دقتها، لكنها كانت تحفزها على المضي قدماً في مهمتها.

استمر الوضع حتى حلّ يوم عملية التفجير المزدوج بأحزمة ناسفة، الذي قام به انتحاريان من التنظيم، مستهدفين مركز تطوع للشرطة المحلية. تم تكليف هند، الحامل في شهرها السابع، بمهمة تعد هينة وبعيدة عن الخطر، وهي مراقبة احد المداخل المؤدية الى المركز، ونقل التطورات عبر اللاسلكي الصغير المعلق في اذنها، على أن تنسحب من موضعها بعد حدوث الإنفجار الأول بدقيقتين لا اكثر.

ذهبت هند واتخذت مكانها المقرر، وسط جمع من متبضعي المتاجر القريبة. لم يواجهها عائق، حتى وقوع اول تفجير وهطول حالة الفزع على الناس. لقد سارعوا باتجاهات عشوائية، كالنمل الذي هوجم بيته، وتدافعوا وعم الإضطراب. أدى ذلك الى تأخر خروجها من الموقع، فجاء التفجير الثاني على مسافة غير بعيدة عنها. هلعت هند وتسمرت

واقفة، قبل أن يسقط امامها دثار يحضن طفلاً حديث الولادة. بدا الإزرقاق على وجهه الجنيني الدقيق، ولم يُبدِ أي صراخ، او حركة.

حدقت هند فيه مرتاعة، وهربت بكل ما اوتيت من قدرة، لكن المشهد لم يهرب من رأسها، حتى وصولها الى وكر الأمان التابع للتنظيم. تزعزعت ثقتها بخالد وصحبه بعد ذلك، وطفقت تسأل نفسها كثيراً، وتفكر بعمق أكثر. الكلام المزوق البليغ والخطب الرنانة شيء، ورؤية نتائج الكلام المجردة على الأرض شيء آخر. أعقب ذلك تقدم حملها ثم ولادة سعد، وكان خالد بانتظاره على أحر من الجمر.

- «الذرية هي اهم ما يتركه المرء في هذه الحياة يا ام سعد.»

مرت الأيام، ونأت هند عن اعمال التنظيم مع زيادة عنايتها بطفلها، الذي ملأ عليها وقتها، وصار محور عاطفتها واهتمامها. كان لسعد عامان من العمر، في الليلة التي عاد فيها والده ليخبرها بأن عليهم ترك المنزل، قبل الصباح.

- «احزمي ما يمكنكِ حزمه يا هند... سنرحل خلال ساعة على الأكثر!»

كان في غاية العجلة والارتباك، أما هي، كمن تدرّب مسبقاً على موقف كهذا، فقد تحركت بسرعة واتزان. قبل انقضاء الساعة، كانت تحمل طفلها وتحث الخطى خلف زوجها المحمل بالحقائب. جاءت سيارة البيك أب رباعية الدفع حسب الاتفاق. نظرت هند الى الركاب، الذين اختفت وجوههم خلف كوفية، او لثام في العتمة. صعد خالد واهله في المقاعد الخلفية مع رجل آخر هناك، وانطلقت السيارة.

سارت العجلة خلال ساعات الليل في طرقات وشوارع، انارتها تارة أضواء اعمدة الانارة الصفراء الباهتة، وتارة أخرى كان الظلام يكتنفها. لم تتمكن هند من الغفوة. شعرت كأنها مع ابنها في عربة موت، ليس لطريقها حدود ولا وجهة. ساد الوجل والصمت، وأحست بأن هذه المرة مختلفة، وانقبض قلبها. استمر الحال كذلك، حتى بزوغ الفجر وظهور الشمس في الأفق. بدأت اجفان هند بالثقل، وكانت ستغفو في اللحظة المفاجئة، التي مالت فيها السيارة بحدة وانقلبت لعدة مرات، قبل ان تستقر على جانب الطريق. آخر لمحات حفظتها ذاكرة هند هي انقلاب المركبة وتدلي رأس زوجها بجوارها، وقد تهشم جزء كبير منه. فقدت الوعي كلياً بعد ثوان من بدء سماعها لصوت بكاء طفلها، وهو يأتي من مكان ما في الخلف.

افاقت هند بعدها لتجد نفسها طريحة فراش في ردهة مستشفى، تجوبها عدة ممرضات مع طبيب شاب. كان وعيها قد غاب لنهار كامل، حيث أن رأسها تعرض لضربة قوية، كما أبلغوها فور استيقاظها. اما سعد فقد وضع قريبا منها، وكان قد نجا من اية اصابة مؤثرة، بالرغم من سقوطه الى الخلف، لأن جسد امه تلقى الصدمات بدلاً منه.

رقدت في المشفى يوماً آخر، مشوشة البال والذاكرة، تتناوب عليها نوبات الحزن والصداع. لقد تركها خالد، الذي اوقفها على قدميها وجعلها أماً. رحل في لحظات وتركها وحيدة، لكنها الآن لا تشبه هند السابقة. تزاحمت الاسئلة في رأس هند الجريح، عن مصير من كان معها

من افراد التنظيم، وعن مصيرها هي بعد استقرار حالتها. كانت تخشى السؤال عن الجماعة، بل تخشى حتى أن تفكر فيهم وهي في تلك الحالة الواهنة. لم تعلم انتماءات من حولها، الكل غرباء ولا تعرف من يروم لها السوء، ومن يتربص بها، ومن سيجازف ويساعدها على الخروج من المحنة. في تلك اللحظات كانت تنوي التخلص من التنظيم بأي طريقة كانت، لكن من سيصدقها وهي التي عاشرت رجلاً منهم، وأنجبت منه، بل وساعدته في تنفيذ عمليات غزيرة بالدماء، فضلاً عن أن الحادث سيعمّق من انطباعات صلتها الوثيقة بهم.

لم تجد هند قريباً تستنجد به، ولا فرد عائلة يعتني بها، حيث أن إمكانية اتصالها بأحد من اقربائها كانت ضرباً من الخيال، ولم تملك من المال الا ما يسد رمقها ورمق إبنها لعدة أيام. بيد إن كل ذلك عوضته تلك الممرضة الشابة الطيبة، التي نسيت حتى اسمها. شعرت هند منذ اول نظرة إليها بالألفة والأمان. وجهها من ذلك النوع الذي ترتاح له القلوب. عينان حنونتان، صوت رقيق، عطف ورعاية. لا مفر من المغامرة ومنح الثقة الكاملة لشخص، ولم تجد شخصاً أفضل من الممرضة الهادئة. انتظرت هند الإنفراد بها، قبل ان تروي لها حكايتها في جمل قليلة مقتضبة، خاتمة إياها ببيان نيتها الخلاص من تلك الجماعة بأية وسيلة. تفهمت الممرضة وضعها، وتجاوبت معها بسعة صدر.

أخبرتها ان من جلبها للعناية الطبية مع ابنها، كانوا عائلة من سكنة منطقة ريفية قريبة، بعد أن شهد طفل الحادث وبلغ اهله،

ويظهر انهم قد اعتبروها مخطوفة، حيث لم يتسرب خبر عن جماعة مسلحة رافقتها. لذا فهي بأمان مبدئياً، لكن الخبر السيء كان إن مدير المستشفى معروف بصلته بالجماعات المتشددة، وبالتالي فثمة احتمال وارد أن يصل خبرها الى من تريد الهرب منهم، في غضون الغد او بعده، هذا فضلاً عن انتشار اشاعات حول قرب غزو التنظيم للمنطقة. اوقع ذلك الكلام الرعب في قلب هند، وتوسلت بالممرضة ان تدبر لها فراراً من المكان بأقرب وقت، حتى وإن كانت حالتها غير مستقرة بما يكفي.

لم تقصر الأخيرة في الأمر، حيث عرضت عليها في مساء نفس اليوم مساعدة احد اقربائها، الذي يمكنه أن يضيف هند وابنها الى قافلة من العوائل النازحة، المتجهة صوب الجنوب، بعيداً عن سيطرة المتطرفين. تم ترتيب الخروج فجر اليوم التالي، وسارت الأمور كما هو مخطط لها. انتهت الأحداث بالتحاق سعد وأمه المتعبة بركب مجموعة من السيارات الناقلة للنازحين، والتي غادرت المكان بلا عودة. وجدت فيهم هند افضل فرصة بعثها القدر لها لبدء حياة جديدة في بيئة جديدة.

وصل قطار الذكريات الى نهايته هناك، وأخرجت هند هاتفها لترى الوقت. كانت الساعة تقترب من التاسعة والنصف. رن النقال بيدها وسكت، مسجلاً مكالمة فائتة. نظرت الى سجل المكالمات، وهي تتذكر مكالمة يوم أمس مع جلال.

- «اسمعي عزيزتي... يجب أن تعودي... الشيخ بنفسه أخبرني بذلك! انتِ زوجة شهيد، وستكونين تحت رعاية خاصة هنا. لقد تغيرت الأوضاع

كثيراً منذ رحيلكِ. ثبتت اقدامنا هنا وصارت لنا سلطة مطلقة الآن بحول الله وقوته. أما ابنكِ فسوف يتلقى أحسن تربية في كنف مدرسة احكام الشريعة، وسيتعلم الدين القويم وليس الدين المنحرف المستشري في هذه البلاد الآن. ستكونين أماً فخورة.»

استمر جلال، شقيق زوجها خالد وبديله في التنظيم بعد وفاته، بالحديث على هذا النحو، مناضلاً لإقناعها بالعودة الى بلدتها الأم، قبل أن يطلب منها، بأسلوب آمر، تنفيذ مهمة أخيرة للتنظيم. مهمة كغيرها من مهامهم، ستخلف المزيد من الأرواح المسلوبة، والحيوات المفقودة.

- ١٥ -

نظر ابو غالب من مقعده الخلفي الى عداد السرعة في اللوحة الأمامية للمركبة وقال بنبرة إعجاب:

- «الحق يقال، انك تقود باحترافية يا مصعب...»

- «حقا؟ اشكرك يا رفيقي... انا اقود منذ ثلاث سنوات فقط، الا ان لي ولعٌ لا ينتهي بالسيارات، ويقولون ان الشغف يورث الحرفة، اليس كذلك؟»

- «بالطبع.»

نظر ابو صالح اليه وابتسم، وقد جاء في مخيلته منظر مصعب وهو يعمل كسائق متحمس لسيارة اجرة. لم يفهم ما الممتع في السياقة الى ذلك الحد. انه يهوى توجيه الآخرين وفق رغباته، الا ان ذلك لا يُقارَن بتوجيه كتلة من المعدن ذات اربع عجلات على الطريق. السيارة صنعت لكي تُقاد، ولو ان بعض البشر لا يفتقرون لتلك الصفة ايضاً. نفخ أبو صالح التراب المتجمع أمامه بفعل عاصفة الأمس، وقال:

- «انت خفيف الظل يا مصعب.»

- «هاها... شكراً.»

كانت الطمأنينة تكسو قلب ابي صالح ذلك الصباح، وهو يقود الجماعة نحو تلك البناية، التي تقع في درب فرعي مواز لطريق ضفة

النهر، المقابلة لشارع مبنى المحافظة من الجهة الأخرى. لقد تم اختيار تلك البقعة في شارع مقفر، من قبل القيادات ومعاونهم الميداني، وتم دفع ثمنها بالدقائق الى مالكها بعد الاتفاق مع احد اقاربه كوساطة بينهم. شعر ابو صالح بالسيطرة الكاملة مع دنوهم من النقطة. كانت اسلحتهم والمعدات في صندوق خاص اختفى اسفل صندوق السيارة، في حين لم تدل سيماهم ولا ملابسهم على شيء ممكن ان يلفت الأنظار.

بعد عدة دقائق توقفت عجلتهم في مكان منزوٍ خلف البناء غير المكتمل. كان مشروعاً لمجمع سكني متكون من ثلاث طوابق، تام الجدران والسقوف، ولم يعوزه الا الإكساء الخارجي وامداد الكهرباء والمياه. خلال ربع ساعة، كان كل منهم متخذاً موقعه، ابو غالب عند بداية الشارع ومصعب عند الباب، بينما كان القناص ابو صالح ينصب عدته على السطح، ويخفيها بسواتر محمولة مخصصة لهذا الغرض.

في تلك الاثناء، وفي ساحة متروكة تقع في نهاية الشارع، كانت مرتعاً لنفايات كريهة سكبت فيها من مناطق مختلفة من المدينة، انحنى عبود بلباسه الرث، يقلب في احد اكوام المهملات وهو يمضغ علكة مرة بين اسنانه. كان يبحث عن علبة مشروبات غازية مستعملة، او زجاجة عطر خاوية، او غيرها مما يمكن بيعه على تجار الخردة، الا ان بحثه لم يسفر عن نتيجة. رفع رأسه وعلى وجهه المرقط بالأوساخ سيماء الجزع، ثم لوى جذعه عدة مرات ليحرر طقطقة احتبست بين فقراته. تردد على آذانه قول سمعه يوم امس من رجل بسترة انيقة، كان يجلس

خلف مقود سيارة مرسيدس حديثة. اتى الكلام جواباً على طلب الفتى للمعونة، لأن لديه اخوة صغار وأم مريضة وليس لهم معيل.

- «وما الفائدة من عيشك يا بني؟ أتعرف؟ مجيئك الى الدنيا في اسرة معدمة مع جمع من الأطفال هو خطأ... بل جريمة. كان يجدر بأبيك ان يسيطر على غريزته، بدلاً من زيادة اعداد الطفيليات في هذا البلد!»

قالها عبر فتحة صغيرة في زجاج السيارة، قبل ان يرفعه في وجه الصبي من جديد، الذي ابتعد والكراهية تفوح من قسمات وجهه. تذكر الموقف في تلك اللحظات وهو يخطو خارج ساحة النفايات حاملاً شواله.

«هه... ما الفائدة من عيشي؟»

غمغم باستهزاء. لقد فات اربعة عشر عاماً من حياته دون ان يجد غاية حقيقية يسعى لأجلها، ولم يمر يوم كامل منذ نجاته من الهلاك، بواسطة السيارة الملغومة. استهدف التفجير مرآب الباصات، قرب الجسر الكبير المؤدي الى شارع الأطباء. لسخرية الأقدار بالنسبة له، كان من أنقذه هي تلك الطفلة المهجرة، التي نالت بطاقة اجتماع المحافظة لمجرد شفقته عليها. توقف عن الحركة وأخذ يضحك بقوة. كلما تذكر ذلك كان يضحك، ويقهقه حتى تدمع عينه.

«لقد أشفقت عليها... أشفقت عليها شخصياً، وكان المقابل، تفادي التحول الى اشلاء متناثرة. هاهاها! ربما كان من الأفضل الموت بطريقة مدهشة مثل تلك. ما الذي يخيف في الموت أصلاً؟»

ما كان هناك ثمة ما يخاف عليه، فليس له ام مريضة، اما الأخوة فربما كان هناك عدد منهم في مكان ما، لكنه لم ولن يعرفه. لا تتعدى تلك الادعاءات كونها جملاً مزروعة في باله، يكررها مئات المرات يوميا لإستثارة عواطف الناس وكسب الصدقات. لفت نظره غلاف مجلة متسخ مرمي على الرصيف، زينته صورة كبيرة لممثلة شابة ترتدي ثوب سهرة مفتوح، لم يبخل في إظهار معظم مفاتن جسدها للمشاهدين. أشبع عبود عينيه منها، ثم ركل الغلاف جانباً وداس على الصورة عدة مرات، قبل أن يتركها ممزقة.

«لن احصل على فاتنة كهذه طول عمري...»

شغل الموضوع باله لكثير من الأوقات، وأية مخبولة ستقبل بمتشرد كزوج لها؟ حتى صاحب محل الندافة زجره منذ ايام، عندما رآه فاغرا فاه وبصره على بنت حسناء تمشي بصحبة خطيبها.

«يجب ان أتقن استعمال السلاح، لأشتري واحداً أخطف به اول فتاة جذابة اصادفها!»

عمل عبود حركة المسدس بإبهامه والسبابة، ورفعه في الهواء ثم وضعه على رأس ضحيته الخيالية. سينقض عليها في طريق فارغ مثل هذا، ويقيد معصميها ويكمم فمها كما يحدث في الأفلام، ثم سيقتادها كالدجاجة الى ركن غرفته المتعفن، وسيرغمها على العيش معه. توقف خياله عند ذلك الحدث، وبصق العلكة من فمه واطلق سيلاً من الشتائم على الدنيا. استمر بالسير في الشارع الى ان لمح من بعيد رجلاً بديناً يقف

قرب العمارة قيد الانشاء. لم ير ذلك الرجل من قبل، بالرغم من مروره بهذا الشارع المهمل بشكل منتظم. مشى حتى وصل اليه، وتوسل به ان يعينه ولو ببعض الخردة. رماه ابو غالب بنظرة كريهة وأمره بالإبتعاد، فأذعن الولد وأكمل طريقه، الا ان طرف سيارة مركونة خلف العمارة جذب انتباهه، وأحس بوجود امر مريب.

«هذا الرجل يحرس مدخل العمارة، وهذا مكان منعزل. لا بد ان هنالك مومس رخيصة يجري التمتع بها في الاعلى. اعدكم ان هذا لن يمر بسلام ايها الأوغاد المحظوظين!»

انطلق المتسول الى الامام باحثاً عن اقرب شخص يمكنه الاتصال بالشرطة، في حين اعلن ابو غالب عبر اللاسلكي:

- «الوضع آمن.»

- «علم. لا مشكلة هنا.»

اتكأ ابو صالح على الحائط وهو ينظر عبر منظار التقريب. كان ينتظر ظهور الهدف، وهو امرأة شابة مع ابنها الصغير سيخرجان من مبنى المحافظة. سوف يتعرف عليها، بعد ان تم ارسال صورة التقطت لها في الشارع هذا الصباح اليه، مع تزويده بأوصافها الكاملة. لكن يجب ان يأتيه أولاً امر التنفيذ عبر الجوال. نظر الى الساعة وهمس لنفسه: «لم تبقَ الا دقائق على نهاية الاجتماع.»

- ١٦ -

كانت هند ترنو الى جانب الاصغاء والتأمل، في اثناء اتصال جلال مساء السبت، قبل أن تتكلم في النهاية.

- «ماذا تريد مني بالضبط؟»

استرسل جلال يشرح لها كيف ان المهمة تقتضي بأن تلصق شريحة الكترونية داخل مكتب المحافظ، تقوم ببث احداثيات موقع المكتب الى جهاز لتحديد المواقع لدى التنظيم. ثم انهم سيستعملون تلك الاحداثيات لإطلاق قذيفة موجهة نحو المكتب، فور انتهاء اجتماع المحافظ معهم. ذلك لأن المحافظ أمسى من المطلوبين لهم، بعد قيامه بارسال عدد من ارهابيي التنظيم الى المركز حيث سيتم اعدامهم لا محالة، في الشهر الماضي. أما الشريحة فهي شريحة اتصال استلمتها منذ ايام، من مكتب خاص حدده لها جلال في مكالمة سابقة.

- «أنا معتمد عليكِ... لا مجال للتراجع يا ام سعد. لديك من الوقت حتى الواحدة ظهراً. وكما قلت لكِ، ستحصلين على المبلغ قريباً جداً، بإذن الله.»

- «حسناً...»

لم تقدر هند على رفض أوامر من التنظيم. لسانها لم ينطق باعتراض واحد، وها هي جالسة تتأمل عبر النافذة، بينما كانت تقلّب الشريحة

الصغيرة في راحة يدها. اعلن السائق الوصول الى بداية شارع ديوان المحافظة، فأخفت الشريحة ونزلت مع ابنها. توجها سيراً على الأقدام، حيث أغُلِق طريق العجلات بالكتل الكونكريتية المألوفة للمارة هناك. قامت هند خلالها بالإتصال برقم سكرتير المحافظ مجدداً، الذي أكد لها إمكانية دخولها للإجتماع، برغم فقدانها بطاقة الدعوة. سارا لمسافة تخللها تفتيش اولي، قبل ان يظهر للعيان مبنى المحافظة. كان شامخاً بطوابقه الأربعة وتصميمه الفخم باهظ الكلفة. لقد شيدته السلطات المحلية قبل بضع سنوات، بالرغم من عدم وجود عيوب مؤثرة في البناية السابقة.

- «ما أجمل هذا البناء يا أمي!»

هتف سعد بتعجب واشارت له والدته بالهدوء. عند مدخل المبنى، وضعت كابينات التفتيش الدقيق وتحري سبب المراجعة. تم استلام هاتف هند ووضعه في الأمانات، قبل السماح لها بالعبور مع ابنها. دخلت الى الداخل ممسكة بيد سعد، الذي كرر اعجابه بالبناية من الداخل. القت هند نظرة على السقف والجدران، ولم تلُم ولدها، حيث كان ديكور السقف والنقوش المذهبة منظراً يخطف الأبصار. كان هنالك موظف مكلف باستقبال المدعوين للإجتماع ذلك الصباح، حيا هند وابنها بلباقة، ثم أرشدها الى ممرين طويلين. عبرتهما قبل الوصول الى باحة واسعة، أطلت عليها باب عالية من الخشب الأبيض المصقول والمزخرف باللون الذهبي.

- «يمكنكِ الإنتظار هنا يا سيدتي.»

كانت اعداد من المهجرين الجالسين على المقاعد تملأ الساحة. جلست هند معهم، وحدقت في وجوههم. كلهم متعبون، كلهم يحملون نفس مسحة اليأس والكآبة المزمنة التي حملها وجهها. ولو كان لأطفالهم ادراك لتركوا الضحك واللعب الذي شغلهم، ولبسوا الوجه القَنوط ذاته، الذي لبسه ذووهم. هؤلاء القوم بحاجة ماسة الى من ينتشلهم، ويمنحهم عيشاً آمناً مستقراً. متى يتساوى الجميع حق المساواة؟ هل من الممكن أن تتحقق العدالة يوماً ما في هذا البلد؟ ما فرق هؤلاء عن ذوي المناصب؟ اولئك الذين لا تشبع بطونهم، ولا تكتفي شراهتهم للإمتيازات بكل جحافل الحمايات والثروات المنهوبة. هم لا يكفيهم كل شيء، بينما يعيش غيرهم بحثاً عن أي شيء.

دام الانتظار نحو تسعين دقيقة، قبل ان يصل المحافظ مع فرقة الحماية، ويؤذن لهم بالمرور عبر الباب العالية لمكتبه الشخصي. غص المكتب بالنازحين إضافة الى مصوري القنوات الفضائية ومراسليها، وبدأ المحافظ كلمته، بعد ان اتخذ الجميع أماكنهم على طاولة خشبية ضخمة، توسطت القاعة الفارهة التابعة للمكتب.

«كل هذه الفخامة والأموال الضائعة... هنالك من هو أجدر بها منكم.»

هذا ما دار بخلد هند، فيما تكلم الرجل بوقار وثقة عما ستقدمه الحكومة المحلية، بالتعاون مع الحكومة المركزية، للأعداد الغفيرة من المهجرين الذين تم استقبالهم من المحافظات المنكوبة بالإرهاب.

تلمست هند جيباً داخلياً في عباءتها كانت الشريحة عائمة فيه، ثم زمّت شفتيها بتوتر. استمر الحديث عن نية المحافظة بناء منازل بسيطة لهم تتوفر فيها الخدمات، ثم توفير فرص عمل لمعيليهم، وتخصيص رواتب لهم من الرعاية الاجتماعية، ومن مؤسسة خاصة بهم. كانت هند تصغي وعيناها تتأرجحان كالبندول، بين ساعة الحائط الكبيرة فوق المكتب، وبين وجه المحافظ.

«نعم، كأنكم قد وفرتم هذا لمواطنيكم، لكي نأمل أن توفروه لنا...»

انتقلت الفرصة بعد كلمة المحافظ الى المدعوين، لطرح اهم ما يواجههم من مشاكل. كانت هند طول الوقت تتفحص طاولة الاجتماع، والأشخاص المتواجدين في الصالة. من السهولة بمكان أن تلصق الشريحة اسفلها بحركة واحدة من يدها، دون أن يشعر أحد. نظرت الى الساعة المعلقة ملياً، ثم مدت يدها الى جيب العباءة بينما حدقت بثبات بوجه المحافظ.

«أنتَ يا مَن لا تعرف غايتك، جِدها بأسرع وقت. أما أنتَ يا مَن تخاطر، فاستعد لأن تتألم كثيراً، قبل أن تُـكافَأ كثيراً.»

«لا مجال للتراجع... أبداً.»

مرت الدقائق. تم التقاط سيل من الصور اثناء توزيع هدايا مادية متواضعة على الحاضرين، تخللتها وعود من المسؤولين بحل مشاكلهم بأسرع وقت، ثم أذن لهم بالانصراف. اسرعت هند بالخروج مع سعد، ووصلت الى الاستعلامات حيث استلمت هاتفها، وقامت بتشغيله اثناء

مشيها في الشارع. كانت مقطبة الجبين وطغى الخوف والقلق البالغ على تقاطيع وجهها الدقيقة. أخذ النقال بالاهتزاز، مشيراً لوجود اتصال آخر من جلال. خطفت الأفكار كالبريق امام هند.

«لن ننجو منهم... ليس بعد ما جرى اليوم!»

قامت بنزع بطارية الهاتف بعنف ورميها على جانب الرصيف.

- «لماذا ترمين البطارية يا امي؟»

لم ترد على سعد، بل جرته ومشت بسرعة باتجاه سيارات الأجرة، التي اصطفت في بداية الشارع.

في تلك اللحظة وصلت اشارة التنفيذ الى ابي صالح. احكم قبضته على السلاح وصوب المنظار نحو النقطة، التي سيصل اليها الهدف خلال لحظات. دخلت فريسته مرمى النيران، لكن ابا صالح تجمد كالصنم. نزل المشهد كالصاعقة على رأسه. تشنجت يداه بالكامل مع اصبعه الموضوع على الزناد، وسار خدر شديد في وجهه ولسانه.

«هذه هند... هند ابنة نجاة!»

شعر أن كل ما أمامه خيال، وعصفت الخواطر كالزوبعة في ذهنه. هند التي كانت مصدر اثارة له في يوم من الأيام، برغم كونها ابنة زوجته وعدم بلوغها سن الرشد بعد. تلك الأيام السقيمة، أيام كان يُسمى فيها رزاق! الإسم الذي ارتبط عنده بالضعف والفشل. رزاق الضائع، ذو الكيان المفقود، الذي لم يعرف الله ولا العقيدة. رزاق الذي ترك زوجته في غرفة النوم بعد شجار، وصعد لغرفة سهراته مع الخمر

وافلام الإباحة، حيث قضى الليل يحتسي ما تيسر له من المسكرات الى أن غالبه النوم، في الوقت الذي كانت فيه نجاة تحتضر.

أما هند فهو يعلم علم اليقين إنها قد هربت منه، تاركة اياه في نوبة اختناق كادت ان تقضي عليه، لولا ايجاده بخّاخ الدواء اثناء تخبطه العنيف. انه لا يلومها على ذلك الآن، فهي لم تتعمد قتله، والا كانت ستطعنه وهو نائم بسكين من المطبخ، الذي قضت فيه اغلب وقتها. المشكلة ان احداً لم يخبره بإسم الضحية، ولم تكن الصورة التي وصلته واضحة بما يكفي. كل ما أخبروه به أن عليه التواجد في هذه البقعة عند تلك الساعة، وبكامل استعداده، ثم انتظار أمر التنفيذ للقضاء على هدفه. لا بد انها انضمت للتنظيم وعرفت عنه الكثير، وقد تكون قد ارتدت عنه بعدها، فقرروا تصفيتها. لكن هل سيكون ذلك على يده؟

اجفل من صوت هدر عبر اللاسلكي:

- «الشرطة تقترب من الشارع! اخلوا المكان فوراً!»

استمر تصلب اطرافه، وأحس أن وزنها زاد أطناناً. تصبب العرق البارد من جبهته وراحتي يديه، بينما ثبت على وضعه، يتفرج على هند وابنها وهي تخرج من حقل التصويب، ثم تتحدث مع سائق سيارة اجرة قبل أن تركبها وتبتعد. انتفض واقفاً كمن صحا من حلم، وشرع يلملم معداته بأسرع ما يستطيع.

«يجب أن نغير مسكننا... يجب أن نختفي عن أنظار هؤلاء القتلة...»

فكرت هند بذلك وبانت دمعة وجل في عينيها، مسحتها بسرعة

واخرجت الشريحة في يدها، وهمت بقذفها من شباك التاكسي، غير انها فكرت انها ربما تحتاجها كدليل تقدمه لقوات الأمن، في حالة اتهامها بالتعاون مع الإرهاب، فتراجعت وحفظتها في الحقيبة. استمر سعد في اطلاق تساؤلاته:

- «ماذا يجري يا امي؟»

قربت رأسها منه واجابته بصوت خافت لكن بوضوح:

- «سعد، عندما نصل سوف نحمل اغراضنا من هناك ونرحل عن المخيم. اريدك ان تعينني في ذلك وألا تضيع وقتاً، هل فهمت يا بني؟»

- «لماذا نرحل!»

نظرت جانبا كمن يبحث عن مخرج ثم قالت:

- «سننتقل الى مكان افضل...»

- «الى اين؟»

سكتت للحظات قبل ان تكمل:

- «الى بيت ام رشا...»

تفاقم التوتر داخل هند واستفحل، حتى أوشك دماغها على الإنفجار. مدت يدها داخل الكيس الصغير، الذي اتاها من زهير الأعرج، واخرجت حبة دواء حمراء، ابتلعتها فورا بدون ماء، قبل أن ترخي رأسها على وسادة مقعد السيارة.

- ١٧ -

- «التنظيم الإرهابي أرادكِ ميتة يا سيدة هند. لقد خططوا لقتلك عند خروجك من اجتماع المحافظة، منذ ثلاثة ايام مضت. تربص بك قناص مدرب، وأوشك على اتمام مهمته، لولا تدخل الشرطة ومطاردته، ثم القبض عليه مع اثنين من مساعديه. وما اخبرك به حالياً هو خلاصة اعترافاته لنا.»

تشابكت يدا هند عدة مرات بتوتر وتمتمت:

- «نعم. توقعت أن اكون هدفاً لهم، بعد عصياني للأوامر. كما إنه اخبرني بوضوح، أنه سيمهلني حتى الواحدة ظهراً لأرد عليه. لا قدرة لي على قتل أحد، وبالتالي لم أزرع الشريحة كما أرادوا...»

قاطعها الضابط مبتسماً:

- «إذن لا زلت تصرين على قصة الشريحة واستهداف المحافظ، بالرغم من تحققنا التام أن الشريحة هي شريحة اتصال اعتيادية، عقب استجواب صاحب المكتب، وعرضها على خبير شركة الاتصالات؟ ألم تقتنعي الى الآن، ان هذه هلوسات لديكِ، نتجت عن الحبوب التي قمتِ بتعاطيها مؤخراً، والتي بيعت لك على اساس انها حبوب مهدئة، تريح العقل وتسعده؟»

لم تنطق هند بكلمة، بل ظلت تحدق في المنضدة المربعة التي اتكأت

عليها في غرفة التحقيق.

- «لنترك الموضوع. أفهم من كلامك، إنك لا تعرفين شيئا عن الملازم صائب؟»

ارتعشت شفتاها مراراً، قبل أن تجيب:

- «لا شيء، اطلاقاً!»

صمت ضابط التحقيق لوهلة، ونظر الى الملف المفتوح امامه، والذي احتوى على افادة مفصلة للملازم صائب، قبل أن يردف قائلاً:

- «جيد... ذلك بالرغم من إنك قمت بدعوته لبيتك في غياب زوجك خالد، قبل ثلاثة أعوام ونحو شهرين من اليوم. حصل إنك اعترفت له بوقتها بمعارضتك للتنظيم وأفعاله الإجرامية، لكنك كنت مجبرة على العيش مع زوجك الإرهابي، لعدم وجود خيار ثان أمامك. لقد عرض عليك التعاون معه وأنت وافقت، وباعتبار أن الملازم كان ضمن خلية استخبارية نشطة هناك، فقد قام باختراق اتصالات التنظيم من خلالك. بعدها ببضعة أيام تم نصب فخ للإيقاع بهم، وبفضلك يا سيدتي، كانوا متوجهين لقبضتنا بالفعل، قبل أن يحول حادث السيارة الشنيع دون ذلك. هل يذكرك ذلك بشيء؟»

هزت رأسها بالرفض، وبقدر صدمتها لسماع حكاية الضابط، شعرت هند بارتياح دافق يغمرها. إذن لم تكن راضخة للتنظيم، بل قاومتهم وامتلكت الشجاعة الكافية للمخاطرة بحياتها في سبيل ذلك. كان استسلامها لهم عقدتها الدائمة ونقطة ضعفها، وها قد زالت الآن بعد

معرفتها الحقيقة. لم يعرقل الأمر الا سوء الحظ، بحصول ذلك الحادث المشؤوم، او ربما شاء القدر أن يختبرها، وكم كان الإختبار عسيراً.

- «حسناً... هذا يعني انك اصبت بفقدان ذاكرة جزئي بسبب الحادث، وذلك الإحتمال وارد جداً. سيجري الطبيب المختص عليكِ الفحوصات اللازمة بالتأكيد. الآن انتظريني قليلاً، من فضلكِ.»

خرج الضابط من الغرفة نحو غرفة تجاورها، تاركاً هند جالسة، مضبّبة الفكر كأنها في حلم ثانٍ، بينما تردد على آذانها صدى جملة سمعتها منذ سنين.

«انتَ يا مَن تخاطر، فاستعد لأن تتألم كثيراً، قبل أن تُـكافَأ كثيراً. لكن مكافأتَكَ ستُنسيكَ كلَّ ما مررتَ به، وستكون مستحقة للعناء الطويل بحق.»

خاطب الضابط زميله حال دخوله الغرفة المجاورة.

- «كما توقعت... انها تتذكر معظم الأحداث المهمة، عدا تعاونها مع صائب وفريقه. هذا، على الأغلب، جاء من شيئين، اولهما الإحساس بالذنب، لتآمرها على زوجها وجماعته، وثانيهما هو قُرب زمن الحدث من الإصابة، حيث ان تعرفها على صائب سبق الحادث بأيام معدودة فقط. لكن شجاعتها أذهلتني بصراحة. لا بد ان قلبها من فولاذ، لتتجرأ على ادخال رجل غريب الى بيت زوجها المتطرف.»

- «بالتأكيد، لا تنس أن المرء حين يجد نفسه رهين عذاب أبدي، يهون كل شيء في نظره، حتى الموت. والآن أخبرني، ماذا انت فاعل بشأن

حبوب الهلوسة؟»

- «سنخفي الموضوع بالكامل في الوقت الحاضر، يا صديقي. المرأة عاشت من المآسي ما يكفيها بحق الله، ولا داعٍ لإضافة المزيد، بسبب شريط حبوب ممنوعة باعه لها احد اوغاد منطقتها. انها ليست مدمنة على أي حال، بل بدأت بخوض هذا الطريق التعس للتو. أمر طبيعي أن يستغلوا حالتها النفسية الهشة، ليبيعوا لها سلعتهم الدنيئة.»

- «كلام سليم. المسكينة، حتى هلوستها تمحورت حول عملية اجرامية، وبالرغم من كونها تحت تأثير العقار، الا انها لم ترتكب ما ظنته جريمة.»

- «بلى، لذلك اريد أن أجنبها المزيد من المشاكل. أما جلال فبعد التقصي عنه اتضح انه معاون لزعيم في التنظيم، ويبدو انه بذل جهده لإقناعها بالرجوع ليتزوجها، وأعطاها موعداً اخيراً للرد عليه، لكنها لم تُلبّ رغباته، فقرر ارسال القناص لقتلها انتقاماً. انهم يختارون عمليات القنص دوماً قرب مؤسسات مهمة، لإعطاء الإيحاء بسيطرتهم على كل بقعة من الأرض، لكنهم فشلوا هذه المرة والحمد لله. الآن سأعمل ما بوسعي لأن تنال مع ولدها سكناً كريماً وراتباً، يضمن لهما حداً ادنى من العيش، لحين تدبير عمل لها. ما رأيك؟»

اشار له زميله بابهامه علامة الموافقة، وانصرف الضابط لإتمام عمله.

في تلك الأثناء، وفي ساعات منتصف الظهيرة، كان الأعرج زهير على وشك انهاء حصة الصباح من الساندويشات، عندما اقترب من الكافتيريا مراهق قذر رث الملابس، كان نعلاه مختلفين في الشكل. صاح

من مسافة:

- «هل لديك هامبرغر يا عم؟»

رمقه زهير بنظرة متفحصة، دارت بين عين الصبي التالفة، واذنه المصابة نتيجة حرق، وشعره الخشن، قبل أن يرد:

- «وهل لديك ثمنها يا صغير؟»

- «نعم، اذا قبلت أن تأخذه من مسكين مثلي...»

- «لم لا!»

بسط الأعرج كفه ومدها، فوضع فيها الصبي ورقة عملة متهرئة باستياء.

سأله زهير في اثناء صنعه للساندويش:

- «ما اسمك يا ولد؟»

- «يقال لي عبود...»

نظر اليه زهير ثانية، ثم تأكد من كونهما وحيدين قبل أن يضيف:

- «حياتك بائسة بالتأكيد يا عبود.»

- «في كل يوم يا عم...»

- «ممم... ما رأيك في قليل من المتعة المجانية؟»

- «وكيف ذلك؟»

أخرج زهير حبة صغيرة من جيبه قائلاً:

- «سأطحنها وأضعها لك مع الصلصة. إن أخذتها فسوف أجعل السندويش على حسابي. وعندما تعجبك، قابلني غداً للمزيد.»

قفز عبود صائحاً:

- «ولم تطحنها؟ اعطني اياها وسأبلعها بعد الغداء!»

بعد قليل كان عبود يتمشى وهو ينهي سندويشه. أخرج الحبة الحمراء ونظر اليها عن قرب.

- «هه! المتعة الحقيقية، اليس كذلك؟ وماذا سأفعل بمتعة مفتعلة، لا تدوم اكثر من ساعات قليلة، ايها الخنزير!»

اسقط الحبة من يده، ثم داسها بنعله حتى صارت تراباً احمر، قبل أن يتوجه نحو مكان تسوّلٍ جديد.

:::::::::